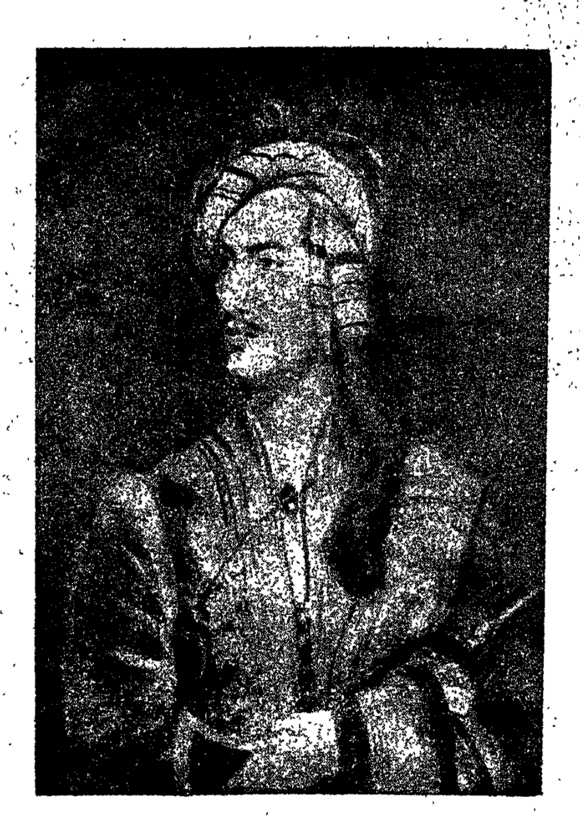
بايرون

بايرون

اقرأ ١٥

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف





لورد بايرون

١٩ ابريل عام ١٨٢٤

هبت على بلدة ميسولونجى فى اليونان عاصفة هوجاء اقتلعت الشجيرات ، وحطمت الأغصان ، وهزت الأكواخ . وتساقطت الأمطار فى سيول ملأت الطرقات بالوحول . وزمجر البحر غاضباً فقامت أمواجه تضرب الشاطىء فى شدة ووحشية ، ومع ذلك تجمع الناس حول بيت صغير يقوم فوق رابية ترتفع قليلا عن مستوى البحر . ووقفوا صامدين لغضب الطبيعة ينتظرون فى لهفة وقلق ، أنباء بطلهم المحبوب . وفى حجرة صغيرة من حجرات البيت ، كان هذا البطل يجود بأنفاسه الأخيرة ، ويعالج سكرات الموت على فراش رخيص يبعد آلاف الأميال عن وطنه وأسرته . ولم يطل الصراع به فأسلم الروح فى هدوء وسكون . وطاع الخبر على المجتمعين فاصفرت الوجوه ، وارتجفت القلوب ، وانهمرت الدموع غزيرة من عيون رجال عرفوا بالخشونة والوحشية ، وهتف الكل قائلين : « مات الرجل العظيم » .

وعند ما شرق الفجر أطلقت المدافع تحية للراحل الكريم ، وغنقت حكومة دواوينها أياماً ثلاثة ، ووقفت الاحتفالات فى جميع أنحاء اليونان ، وأعلن الحداد العام فى طول البلاد وعرضها .

ووصلت خبر ووفاة البطل إلى أوربة فوجم الناس فى ألمانيا ؛ وفى فرنسا وضع الشبيبة شارة الحداد على قبعاتهم ؛ وفى انجلترا قضى تلاميذ يوماً حزيناً فى قراءة دواوين الراحل وقصائده الكثيرة .

فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل عام ١٨٢٤ مات جورج جوردن بايرون أعظم شعراء القرن التاسع عشر فى انجلترا . وتمته فى اليونان أصوت صحيفة مليئة بالأحزان والمآسى لرجل تحدى تقاليد مجتمعه فنبذه ذلك المجتمع وقضى عليه بالنفى والتشريد .

١

نزلت أسرة بايرون الجزر البريطانية فى صحبة وليم الفاتح دوق نورمانديا . واشتهرت تلك الأسرة بالشجاعة على مضى القرون ، وخاض أفرادها الحروب والمعارك ، وأظهروا ولاء الملوك المتعاقبين مما رفع شأنهم ووطد أقدامهم فى البلاد . ومن أجل خدماتهم العدة و إخلاصهم العميق منحوا الألقاب والضياع ، فاتسعت أراضيهم فى نيوستيد بالقرب من نوتنجهـام ، وفى روشديل بمقاطعة لانكشير .

ولكن لعنة ما كانت تحوم حول هذه الأسرة فتجعل من أفرادها مردة جبابرة تجرى فى عروقهم دماء الشياطين . وظلت تلك اللعنة تنتقل من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل حتى وفاة اللورد السادس چورج جوردن بايرون شاعر الانجليز العظيم : ففى نهاية القرن السابع عشر مات اللورد الثالث بعد أن بدد أموال أسرته ، ونشر الرعب فى قلوب جيرانه وأصدقائه . وزادت الحالة سوءا فى عهد حفيديه ولدى اللورد الرابع . فلقد أنجب هذا الرجل ابنين : أكبرهما وليم بايرون الذى ورث لقب أبيه و شتهر

في بعد « باللورد الشرير » ؛ وثانيهما الأدميرال چون بايرون المعروف باسم « چون المنحوس » .

ولوليم بايرون تاريخ حافل بالشرور والمتاعب . فلقد كان حاد الطبع ناري المزاج ؛ يتشاجر أينما ذهب ، ويخلق المتاعب أينما حل . واختلف يوماً هو وجاره شوارث صاحب قصر أنسلى فدعاه إلى المبارزة في حجرة مظلمة وقتله غيلة وغدراً ، وقبض عليه . وحوكم أمام مجلس اللوردات ؛ وبعد دفع غرامة كبيرة أفرج عنه ، فعاد إلى قصره في نيوستيد . وثار الرأي العام ضده ، فقاطعه أصدقاؤه ، وتجنبه جيرانه ، ولقبه الناس باللورد الشرير . ولم يحاول هو أن يسترضي الناس ، أو يكفر عن جريمته بل اعتكف في بيته ، وأمعن في شروره ، وساء زوجته صنوف الوحشية والتعذيب ، فهجرت منه استعاض عنها بخادمة قروية .

وحدث أن تزوج ابنه البكر دون موافقته ، فثارت ثائرة اللورد الشرير ، وأقسم أن ينتقم منه بتبديد ثروة الأسرة حتى لا يجد ابنه بعد وفاة أبيه إلا الخراب والدمار ؛ فقطع أشجار الغابات وباعها ، وبدد ثمنها في المقامرة ، وذبح الغزلان التي كانت ترعى فيها ، وحطم حجرات القصر . وأجر ضيعته الثانية

روشديل بأجر اسمى زهيد لمدة طويلة ، وقضى بقية أيامه فى تربية الصراصير وتدريبها على تعرف صوته وإطاعة أوامره ! وذهبت الثروة كما شاء ، ولكن الابن مات قبل أبيه فلم ينله الانتقام من قريب أو بعيد ...

أما جاك المنحوس فقد كان ضابطاً بحرياً شجاعاً ، لازمه سوء الطالع طيلة حياته . وكلما قام برحلة بحرية هبت العواصف والرياح فتتحطم السفينة ويموت من عليها إلا هو . وفى عام ١٧٨٦ مات المنحوس ، وترك ولدين ، أكبرهما جون بايرون والد الشاعر الكبير .

* * *

ورث جون بايرون عن آبائه وأجداده ثروة كبيرة من الخلاعة والاستهتار والمجون . واتصف مثلهم وحشية الطبع وحدة المزاج فلقبه الناس « بجاك المجنون » . وما بين الثانية والعشرين من عمره أصبح مضرب الأمثال فى الجمال الرائع والحسن الفريد . وفوجىء المجتمع الانجليزى يوماً بهرب به إلى فرنسا مع ليدى فرنسيس كارمارذن زوجة دوق ليدز . وطلق الدوق زوجته ، فاقترنت بحبيبها ، وأنجبت منه ابنة واحدة هى الليدى أوجستا

بيرون التي تردد اسمها فى تاريخ شقيقها الشاعر وقصة حياته كلها ..

وبعد عام من ولادة أوجستا ماتت الأم ، وبموتها انتقلت ثروتها إلى أسرتها ، وضاقت سبل العيش فى وجه جون بايرون ، وتراكمت عليه الديون ، فعاد إلى انجلترا لعله يجد فيها سبيل الخلاص : وسبيل الخلاص هو أن يبحث عن امرأة غنية يشركها فى حياته وديونه . وفى مدينة باث وجد ضالته المنشودة فى شخص الآنسة كاترين جوردن الوارثة الوحيدة لممتلكات أسرتها الكبيرة .

وكاترين جوردن فتاة عريقة الأصل تجرى فى عروقها دماء أسرة ملكية اسكتلندية . ولكن أسرتها أيضاً عرفت بالوحشية والشرور . فقد انتحر والدها فى نوبة غضب من نوبات معروفة . وقتل جده شخصاً . وشنق عمها لجريمة اقترفها . وتربت كاترين فى رعاية جدتها ، ونالت من الثقافة قسطاً ضئيلاً . ومع ذلك لم تستطع الثقافة التغلب على طباع آل جوردن وأخلاقهم الموروثة . وعرفت بالحدة والمزاج النارى . فإذا غضبت ذات يوم من إنسان ، فتنهال على ضحيتها بأقذع الشتائم وأفحش الكلمات ، ثم تمزق كل ما تصل إليه يدها من

أوان وأطباق وتحطمها على الأرض فى جنون . وعلى الرغم من خلقها الردىء كانت عزيزة النفس ، شديدة الكبرياء ، وبذلك « جمعت بين صفات النبلاء وأخلاق السوقة وطباعهم » .

وتزوجت كاترين جوردن من جون بايرون ، فلم يمض عامان حتى بدد الزوج ثروة زوجته ، وتركها فقيرة مفلسة لا تملك فى الحياة إلا معاشاً سنوياً لا يزيد على مائة وخمسين جنيهاً ! وتبينت هذه الحقيقة يوماً ، فلم تثر ، ولم تغضب ، ولم تحطم صحوناً ؛ بل أذعنت للأمر الواقع ، ولأنها كانت تحب زوجها حباً بالغاً تقبلت الفقر فى وقار وشجاعة وهدوء . وفى أوائل عام ١٧٨٨ وضعت طفلها الأول والوحيد جورج جوردن بايرون .

وعند ما بلغ الصبى عامين من عمره ، أخذته أمه وسافرت إلى اسكتلندا . فلقد كانت تحن إلى وطنها الذى تربعت فيه يوماً على عرش الثروة والجاه . وفى مدينة أبردين استأجرت مسكناً صغيراً عاشت فيه مع ابنها الصغير وخادمتها ماى جرى . وأحس جون بايرون أنه أدى فى الحياة واجبه الأكمل : بأن بدد ثروة زوجته وجاء بولد يرفع لواء الأسرة من بعده ، فهجر

مسز بايرون ، وسافر إلى فرنسا ، وعاش ما تبقى له من العمر في فلانسيين ...

***

كان بايرون الصغير آية من آيات الجمال : شعره الذهبي الصقيل ينهدل في خصلات متموجة فوق جبينه ، وعيناه الرماديتان تتحركان بين أهداب طويلة غزيرة ، شفتاه قرمزيتان ، وأنفه دقيق حاد . ولكن لعنة الأسرة أبت إلا أن تتبع الصغير في مهده ، فولد بقدم معوجة كان لها أكبر الأثر في حياته كلها . ونشأ عن تلك العاهة عرج ملحوظ في سيره .

وكان المنتظر أن تحوط مسز بايرون ابنها الوحيد بعطفها ورعايتها مادامت قد فقدت الزوج الذي أحبته وضحت بالكثير من أجله . ولكن دماء جوردن لم تترك مجالا للعطف والرعاية . وزاد الأمور تعقيداً حزنها المكبوت على ماحل بها من فقر وتقشف لم تعرفهما أو تعتدهما من قبل : فأصبحت حياتها سلسلة غضبات جنونية ، تتعالى خلالها صرخات يسمعها السائرون في الطريق ، ثم يتبع ذلك تحطيم الصحون وتمزيق الثياب . وذاق بايرون الصغير الأمرين ، وتفتحت عيناه على مشاجرات حامية الوطيس ، و بدل

قبلات الأم الناعمة قاسى الكلمات الخشنة الموجعة . ومنذ طفولته انصب فى أذنيه سيل الإهانات الجارحة التى تكمن فى القلوب ، فلا تستطيع الأيام محوها. وفى ذات يوم ثارت ثائرة مسز بايرون فجرت خلف الصغير صائحة : « صه ، أيها الأعرج » . ومادت الأرض تحت قدميه لعظم الإهانة ، وتقلص وجهه حزناً وألماً ، فقد كان يغفر لها كل شىء إلا أن تعيّره بعاهته ، ولكنه كتم غيظه وأجاب فى جمود :

— هكذا ولدت يا أماه .

وعند ما اختلى فى حجرته أمسك بصحن صينى وقضمه بأسنانه فكسر جزءا كبيراً منه . وتكررت الإهانة بعد ذلك ، ولكنه تعلم درساً ، وهو ألا يترك لحزنه أوألمه مجالا للظهور ، حتى لا يشفى غليل أمه القاسية . وكبت عواطفه فى قلبه وقابل ثوراتها بعد ذلك ببرود يزيدها غضباً وجنوناً . ولكن بذور الكراهية انغرست وتأصلت فى نفسه نحو من جعلت طفولته جحيما ، وظلت تلك الكراهية تنمو وتترعرع ، حتى آخر أيام حياتها .

ولم يكن بايرون الصغير بالحمل الوديع ، ولم يكن من المعقول أن تذهب دماء جوردن وبايرون هباء . فعرف كأجداده بالمزاج

النارى والغضب الحاد ، ولكنه كان غضباً صامتاً مكبوتاً ، لايجد منفذاً للظهور . ومثل هـذا الغضب يأكل القلوب ، ويتعس النفوس ، ويجعل من الحياة عذابا مقيما . ولو كان بايرون الصغير من النوع الذى يطلق العنان لآلامه لخفت حدة تلك الآلام ، وتغير مجرى تاريخه القصير الحافل . ولكن الطبيعة شاءت أن تخلقه هكذا ، ليمتلىء قلبه بالبغضاء للمجتمع ، والحقد على الناس . وتلفت فى طفولته حوله ، فلم يجد ما يدعو إلى التفاؤل أو السرور فأمه تعذبه ، وقدمه العرجاء تجذب نحوه الأنظار ، وفقره المدقع يمنعه من أن يعيش حياة الأسر النبيلة العريقة التى انحدر منها .

وعندما بلغ الرابعة من عمره ، جاءت الأخبار من فرنسا تحمل نعى والده فى ڤلانسيين وشاء چاك المجنون أن يخلف لزوجته ما تذكره به ، فترك لها ديوناً جديدة دفعتها صاغرة ، فانخفض معاشها السنوى إلى مائة وعشرين جنيهاً . وخيم على الأسرة فقر مضاعف فتركت مسز بايرون بيتها القديم فى أبردين ، واستعاضت عنه بشقة صغيرة ليس فيها من الرياش إلا القليل . واقتطعت الكثير من ضروريات الحياة لترسل ابنها إلى مدرسة حقيرة لا تزيد مصروفات الفصل الدراسى فيها على خمسة شلنات . وفى

هذه المدرسة تلقى وريث لقب اللوردية علومه الأولى ، ولكن قسوة الحياة لم تنسه والده ، فحزن على وفاته ، وظل يذكره دائماً بالحب والعطف على الرغم من أنه لم ينعم بالعيش فى ظله إلا قليلا، وأحس بفراغ ووحشة بين أمه المجنونة ومربيتـــه القاسية ماى جراى .

وانقضت الشهور والأعوام فى حزن وشقاء ، ففى كل صباح يذهب إلى المدرسة فيسخر الأطفال من عرجه ، ويعذبونه بذكر عاهته ، فيجرى خلفهم ليؤدبهم ، ولكن قدمه كانت كثيراً ما تعوقه عن اللحاق بهم والانتقام منهم . ويعود إلى بيته كاسف البال فتقابله مسز بايرون بعاصفة من الضجيج والسباب . وفى المساء يحضر مدرسه الخصوصى باترسون ليعلمه الدين ، ويلقى عليه محاضرات طويلة فى فلسفة الخالق والمخلوق : فحياة الإنسان مقدورة عليه قبل ولادته ، فمن أراد الله له خيراً عاش حياته طاهراً شريفاً ، ومن أراد له الشر خبط فى ظلمات الرذيلة والخطيئة، والمرء يقضى عمره سائراً فى الطريق الذى رسم له من قبل .

وعندما ينصرف المدرس يجلس الصبى واجماً مفكراً يتساءل عن حكمة هذه الفلسفة ، ونصيبها من الرحمة والعدل . فإذا كان

الإنسان يعيش كما شاء له الخالق أن يعيش فأى جريرة عليه بعد ذلك ؟ ولماذا يعذب فى الحياة الأخرى ، ويذوق نيران الجحيم ؟ ولماذا التفرقة بين الناس ، وكلهم عبيد الله الخاضعون ؟ ولماذا يتعس البعض ويسعد الآخرون ، والجميع آلات مسيرة لا مخيرة؟ ثم يفكر فى نفسه : ترى ماذا قدر الله له ؟ أمن أصحاب الجنة هو أم من أبناء الجحيم ؟ وتتردد هذه الأسئلة فى ذهنه ، فلا يجد عقله الصغير القاصر إجابة عنها ، فدب التشكك فى عقيدته ، واهتز إيمانه ، وإذا تداعت العقيدة فى الطفولة وانهار الإيمان ، فلا سبيل إلى الإصلاح بعد ذلك .

وفى هذه الحالة النفسانية يأوى الصبى إلى فراشه كل ليلة ، فتتبعه مربيته ماى جراى ، وتحدثه بتاريخ أسرة أمه وأسرة أبيه ، وأن دماء الجنون والإجرام تجرى فى عروقه من الجهتين ، ولعنة الله تنصب على آبائه وأجداده فتقودهم جميعاً إلى الانتحار ، والقتل والشرور . وتؤكد له أنه مهما أتى من خير فقد حق العذاب عليه من أجل أخطاء من ولدوه . ولم تكتف المربية بذلك ، بل كانت تحدثه عن الشيطان والأشباح ، لتملأ نفسه بالرعب ، فيستسلم للنعاس سريعاً ولا يقلقها ، ثم تطفىء الأنوار ، وتتركه فى ظلام

دامس وتخرج للمسرات والملاذ . وتكون النتيجة أن يتملكه الرعب فلا يستطيع النوم ، ويقوم من فراشه خائفاً ، ويخرج من البيت جرياً كالمجنون ، ويقف عند أول نور يصادفه فى الطريق ويبقى هكذا حتى مطلع الفجر وعندما يشتد الصقيع والبرد يعود مرتجفاً إلى فراشه .

وحين بلغ بايرون الثامنة من عمره أصيب بالحمى القرمزية ، فأخذته أمه وسافرت به إلى جبال اسكتلندة ، فرأى للمرة الأولى الجبال الشاهقة ، والحقول الواسعة المترامية ، وانطبقت صورها الجميلة فى قلبه ، و بقيت عالقة بذهنه مدى الحياة ، وتردد ذكرها فى قصائده الأولى التى كتبها فى مقتبل الشباب .

ولما عوفى بايرون ، واستعاد صحته وعافيته ، عاد إلى حياة أبردين المؤلمة المملة . ولكن قبساً من النور أضاء الكون حوله ، فقد عرف فتاة صغيرة اسمها مارى داف ، وهى جميلة الوجه ، رخيمة الصوت ، خضراء العينين . و بادلها الحب وهو فى الثامنة من عمره ، وشغف بها إلى حد أقلق أمه ومعارفه ، وظل يذكرها أعواما عدة بعد الفراق . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره — وكان قد ترك أبردين ، ومارى داف منذ عهد بعيد — أخبرته مسز

بايرون أنها تلقت خطابا من أدنبره يقول إن حبيبته القديمة مارى تزوجت من تاجر معروف ، فزعج بايرون ، وتقلص وجهه ، وارتمى على مقعد بجواره ، وامتلأت عيناه بآيات الحزن البليغ حتى أخاف أمه . و بعد سنوات عدة كتب يصف هذا الموقف :

" فى الواقع لا أستطيع أن أصف أو أفسر شعورى فى تلك اللحظة ، ولكن حزنى بلغ حداً أزعج والدتى ، وجعلها عندما تحسنت حالتى فيما بعد تتجنب الإشارة إلى الموضــوع . وتسلى نفسها بقصه على أصدقائها . كنا طفلين لا أكثر ، وأحببت بعدها خمسين مرة ، ومع ذلك مازلت أذكر أحاديثنا الرقيقة ، وتقاطيعها الجميلة ، فنتى وأرق ، إلحاحى على خادمة أمى لتكتب لى خطاباً أرسله إليها . "

ومثل هذا الحب عجيب ولا شك فى طفل لم يبلغ التاسعة من عمره بعد ، وهو دليل على الحساسية المرهفة العميقة التى تكمن فى صدر هذا الصبى ، والتى تجلت فى مواقف كثيرة فى حياته ، وصيرت رجولته طوراً من التعذيب الطويل .

***

وما بلغ بايرون العاشرة من عمره حتى جاءت الأنباء بموت

« اللورد الشرير » ، فأصبح جورج جوردن الصغير لورد بايرون السادس ، سيد نيوستيد ، وصاحب ممتلكات روشديل الواسعة. فلما بلغه الخبر أسرع إلى المرآة وتأمل وجهه جيداً فلم يجد فرقاً ما ، فذهب إلى أمه حائراً يسألها : أترى فيه تغيراً بعد أن أصبح من النبلاء ؟ ! ولكنه عرف الفرق فى صباح اليوم التالى حين ذهب إلى المدرسة ، فنادى الناظر اسمه مقروناً بلقبه الجديد . وعقدت الدهشة لسانه فلم يستطع الجواب ، وعند ما اتجهت إليه عيون زملائه دهشة أجهش بالبكاء .

ولم يكن لورد بايرون الصغير يعرف عمه الشرير إلا بالاسم فقط ، فقد شاء الرجل الشيخ أن يحرم أسرته كلها ماله وعطفه . وقضى أعوامه الأخيرة فى تبديد الثروة وتخريب الممتلكات ، ولكن الصبي كان يعرف الكثير من شروره وآثامه ، وفى كل ليلة تحدثه ماى جراى بجديد من حوادث جنونه وإجرامه ، فأحس أنه ورث مركزاً محملا بالسمعة السيئة ، كما ورث ثروة يخيمها الفقر ويحوطها الإفلاس ، ومع ذلك امتلأ قلبه بالفخر والخيلاء ، فسيرفعه لقبه الجديد فوق أقرانه وخلانه ، وسيشغل الناس به عن تأمل قدمه العرجاء ، والتحسر على فقره المدقع .

ومن يدرى ؟ ربما فتح هذا اللقب عهدا جديدا فى حياته ينسيه ما لاقاه فى طفولته الأولى .

وقررت مسز بايرون أن تهجر اسكتلندة ، وتعيش مع ابنها فى ممتلكاته الجديدة ، فجمعت رياشها القليل ، وباعته بثمن زهيد ، وأخذت اللورد الصغير ومربيته وسافرت إلى نيوستيد .

٢

لم تستطع مسز بايرون أن تعيش فى نيوستيد ، فالخراب والدمار يسودان حجرات القصر وأبهاءه العدة ، ومظاهر انتقام العم الشرير تتجلى فى كل ركن ، وكل منعطف . وكان إصلاح المكان يتطلب أموالاً طائلة لا طاقة لها بها : ولذلك استأجرت بيتاً صغيرا فى نوتنجهام ، ووكلت عن ابنها محامياً اسمه هانسون ، وسافرت إلى لندن ، علها تستطيع أن تنتزع من مجلس الوصاية معاشاً للورد الصغير . وبقى بايرون وحيدا فى صحبة ماى جراى .

وكانت الحياة فى نوتنجهام صدمة شديدة لبايرون . وأمام الحقيقة المرة انحدرت آماله من عليائها ، وتلاشت أحلام القصور

والخدم والحشم . وعادت أيام أبردين بآلامها وأحزانها . وزاد البلاء بغيبة أمه فلم يعد هناك رقيب يحد من قسوة ماى جراى . وتضاعف طغيان المربية ، فكانت تضربه على مرأى من الناس، وتقوده معها إلى الحانات ، لتحتسى الخمر . وفى الليل تجلب الرجال إلى حجرته ، وتطارحهم الحب تحت أنظاره وأسماعه .

ويبدو أن القدر أراد للصبي شقاء دائماً ، فقد ضاقت أمه بعرجه ذرعاً ، وصممت على أن تعالج عاهته ، ولذلك أمرت بتسليمه إلى طبيب دجال اسمه لافندر . ولم يكن لافندر دجالا فحسب ، بل كان أيضاً وحشاً لا مثيل لقسوته ، فكان يرسله إلى الحانات ، ليجلب له أقداح الجعة . وفى كل يوم يرى أهل نوتنجهام منظرا فريدا : يرون اللورد الصغير ، سيد نيوستيد وصاحب روشديل ، يعرج فى الطرقات ، وهو يحمل القدح فى حذر خشية أن يسكبه ، فينال عقاب الدجال !

وتتلخص طريقة العلاج فى أن يدلك الدجال قدم الصبي بالزيت ، ثم يضعها فى آلة خشبية ، ويضغط المفصل ، ويلويه بتلك الآلة . وتدوم العملية الوحشية ساعات طوالا . ومن أجل أن يشغله عن الآلام يعطيه الكتاب المقدس ، ويأمره أن يقرأ

بعض آياته بصوت مرتفع طيلة الوقت. ولم يجد العلاج إلا فى تعذيبه.

وتبينت الأم هذه الحقيقة بعد شهور ، فاستردت ابنها منه ، وخرج بايرون بأثر جديد فى نفسه لم تستطع الأيام أن تمحوه ، وهو نفوره من الكتاب المقدس الذى اقترنت آياته فى ذهنه بذكرى عذاب لافندر الطويل . وهكذا تضافرت الظروف على تحطيم إيمانه ، وعقيدته ، واحترامه لمبادىء الدين .

***

تمكنت مسز بايرون بفضل سعيها المتواصل من أن تحصل لابنها على معاش قدره ثلثمائة جنيه كل سنة ، وتحسنت حالتها المالية بفضل هذا المبلغ الجديد ، فهجرت نوتنجهام ، واتجهت إلى لندن ، وأصبحت الحالة ماسة للعناية بتعليم بايرون ، فاختار المحامى هانسون لعميله مدرسة أنيقة ، يديرها الدكتور جلينى فى ضاحية وولوتش ، ثم أقنع لورد كارليل بقبول الوصاية عليه . وطابت الأمور من كل الجهات : فالوصى كبير الثروة عظيم الجاه والنفوذ ، و باستطاعته أن يقود بايرون إلى المكانة التى تناسب لقبه وأسرته . والدكتور جلينى مرب فاضل ذكى وفى مقدوره أن يصوغ شخصية الصبى وأخلاقه فى القالب المرغوب . وسعد

بايرون بذلك ، وانتعشت الآمال فى قلبه من جديد ، وبدأ يحلم بالراحة والهدوء والاستقرار ، ويرسم خطط المستقبل ، ويبنى قصور الأمانى .

ولكن مسز بايرون لم تدع فرصة لعطف الناس على ابنها . فهاجمت كارليل وأذاقته من القحة ألوانا حتى ندم الرجل على قبوله الوصاية ، وحقد على الصبى الذى جلب له متاعب كان فى غنى عنها ، وقرر ألا يرعاه بعد ذلك أو يتداخل فى شئونه . ولم يقتصر شرها على الوصى بل تعداه إلى المدرسة ، فتدخلت فى حياته الدراسية تدخلا معيباً . وإذا اعترض الناظر على تغيبه يوماً أبقت ابنها فى البيت أياما ، وإذا اقترح شيئاً جديدا حضرت إلى المدرسة غاضبة ثائرة ، وترن صرخاتها وشتماتها فى أرجائها وتصل إلى أسماع التلاميذ . وحدث ذات يوم أن تجمع الطلبة حول بايرون بعد معركة من معاركها الحامية ، وقال أحدهم له :

— بايرون ، أمك مجنونة ، ولا شك .

فأجابه الصبى واجماً :

— أعرف ذلك !

وتكررت هذه المواقف ، فحزن المسكين حزناً بليغاً ، و بعد أن كان يكرهها فقط ، أصبح يحتقرها أيضاً . وفي كل ليلة يأوى إلى فراشه واجماً متسائلا لماذا لم ينشأ يتيم الأم والأب معاً ؟ ثم يستعيد أطوار حياته ، فيحقد على من أتعست طفولته وأشقت صباه ، وسودت أيامه . ونما الحقد وترعرع على مرور الزمن ، واتسع ميدانه فشمل الدنيا والمجتمع والأقدار .

وعندما بلغ بايرون الثالثة عشرة من عمره أحب للمرة الثانية : ففي خلال عطلته المدرسية قابل قريبته مرجريت باركر ، وأعجب بجمالها الخلاب ، وحسنها الفريد ، وخلقها الرقيق ، و بددت صحبتها بعض آلامه ، وأضاءت بسمتها ظلمات نفسه ، ومن أجل تمجيدها حاول أن يقرض الشعر . ولكن مارجريت ماتت بعد عامين من تعارفهما فحزن عليها حزناً بالغاً ، و بعد أن زار قبرها كتب قصيدة كانت فاتحة حياته الشعرية :

« عند ما ذهبت لأزور قبر مارجريت ، »
« وأنثر الورود على تراب من أحب ، »
« سكنت الرياح ، وهدأ الليـل ، »
« وأبى النسيم أن يداعب الأشجار . »

« وفى حفـــير ضيق رقد جسدٌ »
« تفجر يوما بالحيوية والشـباب ، »
« ولكن ملك الرعب أطبق على ضحيته ، »
« ولن يستطيع مال أو جمال أن يردها إلىّ . »

وظل يذكرها طيلة حياته ، وقال فى وصفها بعد ذلك بعشرين عاماً :

— "كأنها صنعت من قوس قزح ... كلها جمال وسلام."

***

فى ذلك العام أعلنت مسز بايرون راية العصيان على مدرسة الدكتور جليني ، ومنعت ابنها من الذهاب إليها بدعوى فساد طريقة التعليم فيها . و بعد مباحثات طويلة تقرر أن يذهب إلى « هارو » . وفى ذات صباح ذهب هانسون وبايرون إلى المدرسة الجديدة ، وقابلا عميدها الدكتور درورى . وما كاد العميد يختلى قليلا بطالبه الجديد حتى تبين فى الحال أنه « حصان جامح يجب أن يروضه بخيط حريرى» ! ولكنه تبين فيه أيضاً ذكاء متقداً وروحاً فياضاً إلى عُجب وكبرياء .

وانخرط الصبى فى المدرسة كئيباً ، فهارو معهد أبناء النبلاء ،

وهو نبيل أيضاً إنما بالاسم فقط . وكل الناس يعرف فقره ، ونشأته المتواضعة ؛ ولذلك لن يستطيع أن يرتفع إلى مستوى زملائه ، أو ينال منهم ما يطمح إليه من احترام وتبجيل . فضلا عن أن قدمه العرجاء ستلفت أنظار الصبية إليه ، وسيعا كسونه بها ، فيتألم ويشقى ؛ فقرر أن يبدأ بالعدوان ، ويتكبر ويتعاظم على من معه ، لعل الكبرياء والعظمة تسدلان ستاراً بينهم وبين نقائصه . ولازمته هاتان الصفتان طيلة حياته بعد ذلك ، مما نفر قلوب الكثيرين منه .

وانقضى العام الدراسى الأول بين مشاجرات ، ووحدة ، ووجوم . وعندما أقبلت العطلة المدرسية ، سافر إلى قصر نيوستيد ، ونزل ضيفاً فيه على لورد جراى الذى كان قد استأجر المكان أخيراً . وهناك عرف فتاة جديدة هى مارى شاوارث حفيدة النبيل الذى قتله اللورد الشرير فى مبارزة غير عادلة . وكانت مارى جميلة الوجه ، سوداء الشعر والعينين ، رائعة البسمات ، خليعة الحركات ؛ فضلا عن أنها فى السابعة عشرة من عمرها ، وهو ما زال فى الخامسة عشرة . وغرق بايرون فى حبها إلى أذنيه ، وأودع فيها مثله العليا وآماله العدة . ولكن مارى

لم تكن تحبه فى الواقع ، فهو يصغرها سنا ، وكان بدين الجسم لم يكتمل بعد جماله الذى طبقت شهرته الآفاق . وأخفت الفتاة عنه شعورها ، واستسلمت لمغازلاته ، وتقبلت حبه كفرض يجب عليه أن يؤديه نحوها ، وفى نفس الوقت وعدت شابا ثريا ، اسمه چون ماسترز بالزواج . وتمتعت بحب الاثنين فى حكمة وحذر ، فلما انتهت العطلة المدرسية ، رفض بايرون العودة إلى هارو ، وصمم على البقاء بجوار حبيبته ، وحاول هانسون ، كما حاولت الأم أن ينتظم فى سلك دراسته فلم يقبل . لقد كان يتعطش دائما إلى الحب والعطف الذين حرمهما منذ طفولته ، ولقد وجدهما أخيراً فلا سبيل إلى الفراق .

وانقضى الفصل الدراسى الأول على هذا الحال ؛ ولكن حدث ذات مساء أن كتب قصيدة لحبيبته ، وأسرع فى الصباح إلى قصرها ، ليتلوها عليها . وعند ما اقترب من الشرفة سمعها تتحدث مع خادمتها فى صوت مرتفع ، وتقول عنه :

— أتظنين أنى أهتم بهذا الأعرج ؟ !

وتسمر بايرون فى مكانه ومادت الأرض تحت قدميه ، وظل واقفاً برهة قصيرة ، ثم عاد يجرى إلى قصر نيوستيد

كالمجنون . وقضى اليوم كله وحيداً فى حجرته ، وفى اليوم التالى أعد حقائبه وعاد إلى المدرسة . وقضى حديث مارى على البقية الباقية من ثقته بالنساء ، و إنهاء إيمانه فى ذلك الجنس الذى يصفونه ظلما باللطيف ، وحكم على كل امرأة حكمه على أمه ومربيته وحبيبته القاسية ؛ وكرس حياته بعد ذلك للانتقام ؛ ولكنه ظل يحب مارى فى قلبه ، ولم ينسها على مضى السنوات ، و إن بقى أثر قسوتها ، ومن أجل هذا الأثر ذاقت النساء على يديه الأمرّين.

* * *

عاد بايرون إلى مدرسة هرو ، و بعودته بدأ عهد جديد فى حياته الدراسية . فقد اعتاد الطلبة عرجه ، ولم تعد عاهته تلفت أنظارهم أو تثير اهتمامهم ؛ وأحبه الزملاء لشجاعته و إقدامه ، ومناصرته للضعفاء منهم والصغار . وبرع فى السباحة وركوب الخيل ، مما زاد مكانته احتراما وتبجيلا ، وتذوق الصداقة للمرة الأولى ، فثار قلبه الحساس ، وشعوره المرهف ، وغالى فى تلك الصداقة وأسرف ، حتى سبب المتاعب لإدارة المدرسة ، فطلبوا إليه الخروج منها . ولولا تداخل هانسون ولورد كارليل لطرد منها أشنع طردة . و بقى يحفظ ود أصدقائه هؤلاء ، وذكرهم فى قصائد

عدة . ولقد مات الأصدقاء واحداً أثر واحد ، فثار قلبه وتشاءم ، وبدأ يشعر أن اللعنة البايرونية تتبعه ، فتحرمه من أحبابه ، وتبقى على أعدائه . وعند ما بلغ الثالثة والعشرين كتب فى يومياته يقول : « هناك لعنة تحوم حول رأسى » . وقال مرة أخرى وهو فى الحادية والثلاثين : « لم أستطع أبداً أن أبقى على قيد الحياة حتى كلبا أحببته » . وتمكن منه هـذا التشاؤم ، وأصبح على مر الأعوام إيماناً لا يتزعزع .

وفى عهد هارو الأخير توترت العلائق بينه وبين أمه إلى حد خطير . فقد كانت مسز بايرون تضربه على الرغم من أنه دخل فى طور الرجولة ، فأصبح يحتقرها ويكرهها ، ويحقد عليها ، ويزدريها ، ويخاف العطلات المدرسية التى تجمع بينهما . واشتدت به الحاجة إلى من يفتح له صدره ، ويشركه فى آلامه ، فلم يجد إلا أخته أوجستا ابنة جون بايرون من زوجته الأولى فرانسيس كارماردن ، ولم يكن قد رآها فى حياته ، لأنها عاشت فى رعاية جدتها لأمها التى حرمت عليها الاتصال بزوجة أبيها المجنونة . وكتب لأخته دون سابق معرفة ، فنشأت بين الاثنين صداقة شديدة خلال المراسلات . وفى خطاباته جعل يسكب لها آلام

نفسه ، ويشكو لها أمه بأسلوب نثرى رائع . وأرسل لها مرة يقول : « يتملكنى الرعب لقرب أيام العطلة » وفى خطاب آخر يقول : « أأسمى هذه المرأة أماً ؟ هل قدر على أن أغمر بالشتائم ، وأساق بالإهانات ، وتجرح كبريائى لأتفه الأسباب ؟ إننى مدين لها بالاحترام كابن ، ولكننى أنكرها كصديقة . » وتقابل الأخوان بعد ذلك ، فوجدت أوجستا فيه صبيا بديناً حساسا ، ولما رأته للمرة الثانية بعد ذلك بسنوات كان شخصا مختلفا لا يمت إلى الأول بصلة .

وأتم بايرون دراسته فى هارو ، وتخرج منها وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وتركها حزيناً آسفا ؛ فلقد تربع فيها على عرش الزعامة وعرف قيمة الصداقة ، وأحب التلال المجاورة ، والأشجار العالية التى تحيط بها ، والقبور الهادئة . وفى اليوم الأخير صعد التل إلى حديقة الكنيسة ، وودع القبر الذى اعتاد أن يجلس بجواره كل يوم .

* * *

فى شهر اكتوبر عام ١٨٠٥ دخل بايرون جامعة كمبردج ، وهو فى أشد حالات الأسى ؛ فلقد انتهت مرحلة من حياته ،

ولا يعلم إلا الله كيف تنتهى هذه المرحلة الجديدة ؛ وقرر مجلس الوصاية إذ ذاك أن يرفع راتبه السنوى إلى خمسمائة جنيه ، حتى يبلغ سن الرشد ، وفرح بايرون بهذا القرار الذى سيحرره من استعباد أمه ؛ فاستأجر فى كمبردج شقة أنيقة ، وأثثها بر ياش ثمين يتناسب مع مركزه . واشترى حصانا ، وجلب إلى البيت خادما يعنى به ، ولم يلبث أن زايله الحزن ، واندمج فى حياته الجديدة بحماس وشغف .

وكانت الحياة فى كمبردج غير ما كانت عليه فى هارو : فالطلبة لا يعيرون الدراسة إلا اهتماما قليلا ، و يقضون جل وقتهم فى السباحة والمقامرة ، ومعاقرة الخمر . وكان بايرون يحب السباحة ، و يتقنها ؛ ولـكنه يكره المقامرة ، ولا يحتسى الخمر ، ومع ذلك اندمج فى الرذيلتين ليساير الطلبة ، و يعيش حياتهم . وعلى الرغم من بيته الأنيق ، وخمره المعتقة بقى وحيداً لا صديق له ، وابتعد الزملاء عنه ، وعابوا عليه تعاظمه الذى لا يبرره داع ، ولـكن ظهر صديق فى حياته فجأة اسمه « إداستون » ، وهو شاب جميل الصورة ، نحيف القوام ، أسود الشعر داكن العينين . وبدأت المعرفة بأن أنقذه بايرون من الغرق ، ومنذ هـذا اليوم ارتبط

الاثنان بصداقة عجيبة أخذت شكلا عاطفياً قوياً . وهبط الوحى على شاعرنا ، فكتب القصائد فى صديقه . وفى ذات يوم أهداه إدلستون قلبا صغيراً عاجيا ، فأرسله إلى أمه ، وطلب منها أن تحفظه له . ولـكن اللعنة البايرونية تبعت ذلك الصديق أيضاً فمات بالسل بعد سنوات قليلة ، وحزن بايرون عليه ، واسترد القلب العاجي من أمه ، فلما عاد القلب مكسوراً تشاءم جداً ، وظل التشاؤم يطارده مدة من الزمن .

ولم يظهر بايرون عبقرية فى حياته الدراسية ؛ فلقد كان أبداً كسلا يقرأ جميع الـكتب إلا الضرورى منها لدراسته . وراد الطين بلة أن بدأ جسمه يكتمل ، فتملـكه الغرور وجعل يرعى ذلك الجمال . وتفانى فى إظهاره بتصفيف الشعر وأناقة الثياب . وضايقته البدانة التى تفسد الـكثير من حسنه فحاربها بكل الطرق ، حتى اكتسب قواماً نحيفاً رشيقاً . وانقضت الليالى بين كئوس الخمر وقرض الشعر ، ومع ذلك كان وحيداً حزيناً فى قرارة قلبه ، فأخته وجست بعيدة عنه ، وزيارة أمه كدخول الجحيم ، والطبقة الراقية فى انجلترا لا تتصل أو تعترف به ، وزملاؤه فى الجامعة يرقبونه من بعيد ويعجبون لغروره وتعاظمه .

وكانت نتيجة هذه الوحدة النفسانية أن انغمس فى الملاذ ، وكلما حاول أن يكبح جماح نفسه ، تمرغ أكثر فى المجون والاستهتار. وأصبح نهباً لصراع عجيب بين الحالة التى انغمس فيها ، والحالة التى يتمنى أن يسير عليها ؛ وعندما يبلغ الصراع أقصاه يجلس إلى أوراقه ، وينظم الشعر ، حتى يعاوده الهدوء .

واقتصرت قصائده بادىء الأمر على محيط معارفه وأصدقائه ولم يحاول نشرها ، ولكنه فكر فى جمع ما كتبه وطبعه ، فى ديوان صغير تحت عنوان « ساعات الكسل » . وظهر الديوان فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٦ ، ونال نجاحاً عظيما على الرغم من نسخه المحدودة . وفعل الديوان فى كمبردج مالم يفعله شىء من قبل ؛ واتجهت الأنظار إلى الشاعر الشاب ، وتجمع الطلبة حوله يخطبون وده . وتصادق بايرون ورميل اسمه چون كام هوبهاوس الذى شاء القدر أن يلازمه فى كل ما حدث بعد ذلك .

وفى هذا الجو الساحر الجميل تورط بايرون فى الإسراف والنفقات ، ولم يعد راتبه يكفى مطالب حياته البذخة ، وأراد الآن — وقد أصبح شاعراً — أن يعيش كأهل طبقته ، فجعل يبعثر النقود يميناً وشمالاً على الخمر والميسر والنساء . وعند ما تنتهى

نقوده ، يلجأ إلى المرابين فيقرضونه أملا فى استرداد أموالهم مضاعفة ، عندما يبلغ سن الرشد . وتراكمت عليه الديون حتى أغضبت أمه وأربكت محاميه هانسون . وهكذا لم يجلب ديوان « ساعات الكسل » له غير الديون الكثيرة والصداقات القليلة .

ولكن فى بدء عام ١٨٠٨ ظهرت فجأة مقالة فى مجلة أدنبره تنقد «ساعات الكسل» ، وكانت هذه المجلة قوية منتشرة يتردد صوتها فى كل مكان، وعرف صاحبها هذه القوة فاستغلها استغلالا معيناً . وانصب شرها الآن على شاب صغير يبدأ حياته الشعرية ، لتحطيمه وتلويث اسمه ولم يقتصر المقال على النقد فقط بل تعداه إلى التحقير والسباب .

وعندما قرأ بايرون المقال اسودت الدنيا فى وجهه ، وجرت دماء جوردن وبايرون حارة فى عروقه ، وتملكه غضب جنونى ظل يذكره إلى مماته . وقضى أتعس يوم مر فى حياته ؛ وفى المساء أغلق على نفسه الحجرة ، وشرب ثلاث زجاجات من الخمر ، ثم أكب على الأوراق يكتب حتى عاوده الهدوء ؛ وانتوى أن يرد على ناقديه بقصيدة جديدة يفرغ فيها أبلغ عبارات الانتقام

ومن أجل أن يكون انتقامه رائعاً قرر أن لا يتعجل فى الرد ، وأن يكتب فى هدوء وتأنٍ ، ليبلغ شعره أعلى درجات السمو والكمال فيكون سلاحه حاداً قاتلا .

وفى أواخـــر عام ١٨٠٨ حاز بايرون إجازة الماجستير من جامعة كمبردج فانتهت صلته بالجامعة ، وفارقها غير آسف أو مأسوف عليه

***

كان الوقت قد حان لأن يتسلم بايرون ممتلكاته ببلوغه سن الرشد ؛ فسافر إلى نيوستيد ليعيش فى قصر أجداده ، وهناك وجد البيت فى حالة إهمال شديد : فالحديقة جدباء ، والحجرات مهدمة ، والقذارة سائدة . وكان إصلاح المكان يقوده حتماً إلى الخراب ؛ ولذلك اكتفى بإعداد بضع حجرات له ولأصدقائه ، وترك بقية القصر على حاله ؛ ورفض أن يسمح لأمه أن تشاركه فى السكنى لاختلافهما فى الطباع ، ولأنه كان ينوى أن يتمتع بحياة لا يصح أن تراها عين الأم .

وفى هذا المكان الهادىء ، و بين الحدائق الواسعة ، والحقول المترامية ، عاش بايرون وحيداً يقضى يومه فى السباحة ، وتدريب

كلبه العزيز «بوتسوين» ؛ ويقضى ليله فى شرب الخمر وإعداد قصيدة انتقامه من مجلة إدنبره . ولم يحاول جيرانه أن يزوروه ، ولم يحاول هو أن يتعرف بهم . فاشتدت به الوحدة وتملكه السأم، فجمع حوله بضع خادمات جميلات للعناية ببيته ومتعته . وأرسل يدعو بعض أصدقاء الجامعة لزيارته ، فكان چون كام هوبهاوس أول من لبى الدعوة ؛ وقضى الاثنان معاً أياماً جميلة بين المتع والشعر ؛ ولكن المصائب بدأ وابلها ينصب عليه : فمرض الكلب العزيز بالصرع ، وعالجه بايرون بنفسه ، ومسح الزبد عن فمه بيديه ، وظل الحيوان المسكين وفيا إلى النهاية فلم يعض سيده أو يعتدى عليه ؛ وبين ذراعى بايرون لفظ «بوتسوين» الروح ومات . وكان حب بايرون للحيوانات يفوق الحد ؛ ولذلك حزن عليه حزناً شديداً ، ودفنه فى قبر صغير فى نيوستيد ، وأبدى رغبته فى أن يدفن بجواره ، وقرر أيضاً أن يدفن خادمه العجوز «مرى» فى نفس القبر . وعند ما سمع مرى ذلك قال :

— لو أننى كنت واثقاً من أن سيدى اللورد سيرقد معى لأحببت أن أدفن هنا ، ولكنى أكره أن أنام وحدى مع الكلب !

وعلى قبر « بوتسوين » كتب بايرون هذه الكلمات :

« فى هذا المكان يرقد جسد امتلك جمالاً دون غرور ، »
« وقوة دون خشونة ، وشجاعة دون وحشية ، »
« بل امتلك كل فضائل الإنسان دون رذائله . »
« وما هذا المديح - الذى لو كتب على قبر آدمى »
« لكان ملقاً زائفاً - إلا شهادة صدق فى ذكرى الكلب بوتسوين »

وقبل أن يتغلب بايرون على حزنه ، وصلته دعوة من جارته ماري شاوارث التى كانت قد تزوجت من چون ماسترز وتعست فى زواجها . وفى هذه الدعوة طلبت إليه أن يزورها ، وتردد كثيراً قبل أن يذهب ، ولكن رغبته الجامحة فى أن يرى حبيبته القاسية مرة أخرى تغلبت ، فذهب إلى زيارتها ، وما كاد يراها حتى تحرك حبه القديم ، وتضاعف سخطه على الدنيا ، واشتد نفوره من الحياة التى يحياها . وفى خلال هذه الزيارة قدمت له ابنتها الصغيرة ، فدمى بقلبه الجرح ثانية ، وعند ما انصرف من لدنها كتب قصيدة جميلة يصف فيها تلك المقابلة ويقول فيها :

« عند ما رأيت أخيراً طفلتك المحبوبة ، ظننت أن الغيرة ستحطم قلبى ، »
« ولكن عند ما ابتسمت الصغيرة فى براءة ، قبلتها من أجل أمها . »

«قبلتها وكتمت آهاتى، فقد رأيت فى وجهها ملامح أبيها، ولكن كان»
«لها عين أمها التى أحبها وأعبدها . وظننت أن الزمن والكبرياء »
«قد أخمدا شعلة غرامى الصبيانى ، ولم أعرف حتى جلست بجوارك »
« أن قلبى — عدا الأمل — كما كان . »

وأحس بايرون أن بقاءه فى نيوستيد على مقربة من مارى شاوارث خطر على قلبه ، فقرر أن يهرب من موطن الإغراء ، ويسافر إلى بلد بعيد ؛ وسمعت هى بذلك فأرسلت إليه تسأله سبب رحيله ، فأجاب فى قصيدة يقول :

« عندما طرد الإنسان من حرم النعيم ، تلكأ عند بابه »
« لحظة يذكر سعادة خالية ، فثار على حظه ولعن »
« الأيام القادمة . ولكن عند ما جال فى بلاد أخرى »
« تعلم كيف يحتمل الألم . ووجد عزاء فى حياته »
« الجديدة ، فتنهد فقط لذكرى القديم . هذا هو حالى ، »
« ولن أرى سحرك مرة أخرى ، ففى البقاء عذابى ، »
« وفى قربك حسرة دائمة . سأكون حكيما إن رحلت، »
« وهربت بعيداً عن الإغراء ، فلا أستطيع أن أرى »
« جنتى ، ولا أرغب العيش فيها من جديد . »

قرر بايرون أن يترك انجلترا ، ولكن كان عليه أن يتم انتقامه قبل الرحيل ، فجعل يكتب قصيدة رد على ناقديه ، وحمل فيها على الكتاب الانجليز والنقاد الاسكتلنديين ؛ وكان الشعر فى ذاته قوياً رائعاً ولكن السب شديد مقذع . ولم يقصر غضبه على من أساءوا إليه ، بل تناول أيضاً أعظم شعراء ذلك العهد وأكبر كتابه ؛ وعند ما انتهى من عمله سافر إلى لندن لطبعه ، وللاستعداد لدخول البرلمان ، واحتلال مكانه فى مجلس اللوردات .

وكانت العادة المتبعة فى البلاد أن يذهب اللورد الجديد أول يوم الى المجلس فى رفقة أحد كبار الأعضاء ؛ فالتجأ بايرون إلى وصيه السابق لورد كارايل ، ولكنه تخلص منه وتهرب من هذه المهمة ، فاضطر إلى الذهاب وحيداً . وعند ما انصرف من المجلس أضاف إلى قصيدته قطعة شديدة عن كارايل ليشفى غليله .

وبعد دخول المجلس بأسبوعين ظهر الديوان ونال إقبالاً ، ولكن الرأى العام ثار على المؤلف ثورة غاضبة من أجل الشتائم

التى كالها جزافاً لخيرة الناس . وتكهرب الجو من حوله ، واقتضت الظروف أن يبتعد ، ويسافر من البلاد مسرعاً ، ولم يكن لديه مال للرحيل فاقترض أربعة آلاف من الجنيهات ضاعف بها ديونه .

وقبل سفره بيوم أرسل يدعو أصدقاءه ليودعهم ، فاعتذر الكل بمختلف الأعذار التافهة ، وقضى ليلته وحيداً . واشتد سخطه على المجتمع ، وتحطمت ثقته بالأصدقاء ، ورحل فى اليوم التالى دون أن يرى أمه أو يودع أخته أوجستا . واكتفى بأن أرسل خطاباً إلى مسز بايرون يقول فيه :

« سأبحر بعد أيام قليلة ، وقبل أن يصلك هذا الخطاب ؛ وسأترك انجلترا غير آسف ، ودون أية رغبة فى رؤيتها مرة ثانيــة . »

٣

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه عام ١٨٠٩ وقف بايرون على ظهر سفينة الكابتن « كيد » يتأمل البحر بوجه جامد وعين حالمة ، واستعاد الماضى إلى ذهنه صورة صورة فانقبض صدره : تذكر طفولة مليئة بالعذاب والآلام ، وأمًّا لاتختلف كثيراً عن الشيطان ، وحياة كلها صراع وكفاح ، ومجتمعاً لا يقوم إلا على الزيف والنفاق . تذكر ماى جراى وهى تتلقفه من يد والدته لتزيد تعسه وشقاوته ، ولافندر الدجال بعلاجه الوحشى الطويل ، ومارى شاوارث الخداعة القاسية ، ومارجريت باركر فى قبرها الهادىء البعيد ، ثم قصيدة هجائه وما سببته من غضب وثورة . وتساءل عن حكمة هذا الغضب ، وسبب تلك الثورة : ألم يبدأ النقاد بالعدوان ؟؟ ألم تتناوله أقلام الكتاب بالسخرية والسباب لا لسبب إلا كتابة الشعر ؟ ؟ وعند ما يرد العدوان بمثله ، وينتقم لنفسه ، يثور المجتمع هكذا غاضباً عليه !! ولكنه لن يتقهقر حتى لو انقلب العالم رأساً على عقب ، وما دامت الأقدار قد حكمت على حياته أن تكون هكذا ، فليتحدَّ

الأقدار وليقف ثابتاً ليؤلم الكل ، ويغضب الكل ، ويحزن الكل . وسيهجر هذا الوطن القاسى إلى أوطان أخرى بعيدة ، ففى الترحال شفاء للنفوس وبلسم للجراح..

وفى هذه الحالة النفسانية الثائرة سافر بايرون من انجلترا ، وأقلع فى رفقة صديقه هوبهاوس وخادمه فليتشر إلى رحلة يعلم الله مدها ، وإلى بلاد قد يجد فيها السلام والاطمئنان . ونبتت فى ذهنه فكرة شعرية جديدة : وهى أن يكتب قصيدة طويلة يصف فيها حالته عند الرحيل، وتجاربه العدة فى مختلف الأوطان والأقطار . وأكب على أوراقه ينظم قصة « الطفل هارولد » واتجه إلى البرتغال ؛ وفى لشبونة تبدد حزنه وتذوق السعادة لأنه كما قال « يحب البرتقال ، ويتكلم مع الرهبان بلاتينية سقيمة ، ويذهب إلى المجتمعات ، ويشتم الناس باللغة البرتغالية ! » ومن هذا المكان ذهب إلى اشبيلية فانغمس فى الملاذ بضعف آل بايرون المعهود ، وأرسل إلى أمه خطاباً يصف فيه نساء هذه البلاد : « عندما تتزوج المرأة تلقى بكل القيود والتحفظات ؛ وإذا تقدم الإنسان إلى فتاة إسبانية بعرض من النوع الذى يعتبر إهانة فى انجلترا ينال صاحبه عادة لطمة من أشد العذارى

خلاعة ، فإنها تشكره للشرف الذى يسبغه عليها وتقول : انتظر حتى أتزوج وعندئذ يسعدنى أن أجيبك ! »

وفى مدينة قادس تعرف بأسرة الأدميرال كوردوفا فأحب ابنته الجميلة ، وغازلها بمساعدة القاموس لجهله باللغة الإسبانية . وعند ما طلبت منه أن يهدى إليها ماسته الصفراء العزيزة ، رفض وافترق الاثنان غاضبين . ولـكن الماسة لم تبق فى أصبعه طويلا ، وأهداها بعد ذلك إلى مسز سپنسر التى تركت فى نفسه أثراً جميلا فمجدها فى شعره اشرفها وعفتها ، وظل يذكرها حتى وصل إلى أثينا ، وهناك زال سحرها أمام امرأة جديدة هى « تريزا ما كرى » ، أو عذراء أثينا كما كان يسميها فى قصيدته :

« عذراء أثينا . . ردىّ إلىّ قلبى قبل الرحيل ، »

« ولـكن قلبى قد هجر صدرى إذن فإليك باقيه ، »

« واسمعى قسمى قبل أن نفترق . . حياتى ، إنى احبك »

وبعد أن انتهت زيارته لأثينا ، اتجه نحو ألبانيا . وكانت تلك البلاد فى ذلك العهد مجهولة لدى الناس ، فصمم على الذهاب إليها ، وتعرف ما خفى من حياتها وأعجب بها أشد الإعجاب ، وأحب على باشا والى يانينا ، وصادق قبائل السوليوت الذين

عرفوا بالخشونة والوحشية ، ثم عاد إلى اليونان وهو يحمل أجمل الذكريات لتلك البلاد التى أكرمت وفادته ؛ وفى مدينة بتراس أصيب بحمى الملاريا وأشرف على الموت لولا عناية الله .

وفى خلال هذه الرحلة كان بايرون حريصاً على تأدية واجبين أولهما كتابة الشعر ؛ فأتم قصيدة الطفل هارولد ، ووصف فيها كل شىء منذ رحيله من انجلترا ، بل وصف أيضاً حالته النفسية قبل السفر ؛ ونالت مسز بايرون نصيبها ؛ وكذلك أخته أوجستا التى لم يرها ولم يودعها قبل رحيله :

« كان للطفل هارولد أم لم ينسها ، »
« ولكنه تجنب رؤيتها ووداعها ، »
« وكان له أخت أحبها ، »
« ولكنه لم يرها قبل الرحيل . »

وذكر الأصدقاء الذين اعتذروا عن وداعه بما يستحقون :

« لم يحببه أحد ، وإن اجتمع فى بيته مختلف الماجنين »
« عبيد الساعة المرحة ، وطفيليات إذا أذن الرحيل . »

ووصف الشاعر أيضاً فى قصيدته جبال ألبانيا الشاهقة ، وامتدح سكان تلك المناطق الذين يتمتعون بقسط ضئيل من المدنية ؛

وبنصيب عظيم من الحرية والاستقلال . وحيّا فيهم الشرف والأنفة والكبرياء . أما بلاد اليونان فقد عاب فى شعره على أهلها خضوعهم للذل والعبودية ، واستسلامهم للأتراك ، وذكرهم بتاريخ وطنهم المجيد ، وجعل ينعى اليونان القديمة الخالدة :

« يونان الجميلة ... أيتها الخرائب الحزينة لمجد ذهب ؟ »
« إنك خالدة وإن تداعيت ... عظيمة وإن هويت ، »
« فمن لك بقائد يجمع شمل أولادك المشتتين ، »
« ويحطم عن معصميك قيود الذل والاستعباد ؟ ! »

ثم يهيب بالناس أن يستيقظوا ويجاهدوا بأنفسهم فى سبيل التحرير :

« ألا تعلمون ، أيها المستعبدون ، أن من يطلب الحرية يضرب بيده »
« وبيمينه يكتسب الفخر ؟ أو تظنون أن الفرنسى أو الروسى »
« يصلح ما فسد ؟ نعم ... قد يهزمان لكم الظالم ، ولكنكم لن »
« تنالوا فخر الحرية ، وشرف الجهاد . »

وعند ما انتهى من هذه القصيدة كتب أخرى يهجو بها لندن ومن فيها تحت عنوان « لعنة مينرفا » و « ملاحظات من هوراس » .

أما الواجب الثانى الذى حرص بايرون على تأديتـه خلال الرحلة فهو المداومة على مراسلة أمه ؛ فكتب إليها باستمرار يحدثها عن مشاهداته ومخاطراته ، ولم يكن ذلك معناه أن البعد أنساه قسوتها أو غير شعوره نحوها . . . كلا . . . وإنما كتب إليها لأنه لم يجد من يراسله غيرها . وظل شعوره على حاله بدليل أن لورد سليجو قابله فى اليونان ، ولاحظ كراهيته لأمه ، فلما سأله السبب ، قال بايرون :

— سأحدثك يوماً عن سبب هذا الشعور .

وبعد أيام قليلة خرج الصديقان للسباحة ، فأشار الشاعر إلى قدمه العرجاء ، وقال فى مرارة :

— أنظر ؟ هذه العاهة نشأت عن خشونتها عند ولادتى ، ومع ذلك ظلت طيلة حياتى تعيّرنى بها ؛ وقبل أن نفترق تشاجرت معى ، ولعنتنى ، ودعت الله أن يشوه عقلى كما شوه قدمى !

وفى هذه الرحلة عرف بايرون صبياً من أبناء اليونان اسمه « نقولا جيرود » ، وبدأت المعرفة بحجة تعلم اللغة الإيطالية ، ثم انقلبت إلى صداقة حارة ، على الرغم من اختلافهما فى السن ،

بالأخلاق ، والمركز الاجتماعى . وعند سفره منح الصبى مبلغاً كبيراً من المال .

وبعد أن قضى بايرون فى رحلته ما يقرب من العامين ارتبكت حالته المالية ارتباكاً شديداً ، وألح الدائنون على هانسون فى لندن ، وأصبحت الحاجة ماسة لبيع نيوستيد وتسديد الديون ، وتوالت الخطابات من انجلترا تطلب عودته ، فاضطر إلى السفر كارهاً . وفى اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨١١ كان شاعرنا فى مالطا يستقل السفينة إلى وطنه ، وكتب فى خطاب يقول :

— « إننى عائد إلى الوطن دون أملٍ ودون رغبة . »

***

عاد بايرون إلى لندن ، فأسرع أصدقاؤه إلى استقباله ، وعلى رأسهم هوبهوس ودالاس الذى اعتاد أن يسهل له طبع أشعاره ، ومن الخطابات القليلة التى وصلتهم منه توقعوا أن يروه حزيناً ، ضيق الصدر . ولكنهم وجدوه مرحاً سعيداً على غير ما ذكر فى خطاباته . وعند ما استقر به المقام فى فندق ريديش ، سأله دالاس أنظم شيئاً خلال رحلته ، فأعطاه « ملاحظات من

هوراس » ؛ ولما لم تعجبه أعطاه ديوان « الطفل هارولد » كارهاً لأنه كان يعتقد أن هذه القصيدة ضعيفة مملة ، ولكن دالاس قرأها ، فأخذ بجمالها وروعتها ، وأعجب بالأسلوب الجديد الذى صيغت به ، وبالروح القوى الفياض الذى ينبعث من الأبيات . وعرف أن قصيدة الطفل هارولد ستحدث فى البلاد ضجة لاختلافها عما عرف من قبل ، فصمم على طبعها ، وبعد أخذ ورد قبل بايرون طبع الديوان .

ومضت الأيام فى لندن دون أن يفكر فى السفر إلى أمه فى نيوستيد لزيارتها بعد غيبته الطويلة ؛ واكتفى بأن أرسل لها خطاباً يعتذر فيه عن التأخر ، ولكن مسز بايرون ماتت بعد وصول الخطاب فلم تر ابنها . وكانت وفاتها بإحدى غضباتها المشهورة ، فقد هاجمها الدائنون يوماً ، فثارت ثورتها ، وانفجر شريان فى رأسها ، وبذلك انتهت حياتها الصاخبة .

وأسرع بايرون إلى نيوستيد حين بلغه نعيها ، فوجد أمه جثة هامدة على فراشها . وفى تلك الليلة مرت إحدى الخادمات فسمعت أنيناً فى حجرة الميتة ، وعند ما دخلت وجدت الابن يبكى بجوار الفراش ، وحاولت أن تخفف عنه بكلمات التشجيع

والعزاء ، فأجابها والدموع تنهمر من عينيه :

— كان لى صديق واحد فى هذه الدنيا ، وها هوقد ذهب .

فهل كانت مسز بايرون حقيقة صديقه الوحيد ؟ كلا بالطبع ! وكل ما فى الأمر أنه شاب عاطفى حساس إلى درجة غير عادية ؛ وكلما سمع بموت إنسان أو حيوان يعرفه استسلم للحزن واعتبره صديقه الوحيـــد فى الحياة . هكذا فعل مع مارجريت پاركر ، ومع كلبه بوتسوين ، ومع أمه الحمقاء .

ولم يدم حزن بايرون على أمه طويلا ؛ ففى صباح اليوم التالى دهشت نفس الخادمة عند ما رأته يرفض السير وراء جثمانها عند تشييعه ، ويأبى الاشتراك فى الجنازة . وعند ما خرج نعشهامن البيت ، اقتصر على الوقوف فى البهو يرقب ابتعاده ، وقبل أن يختفى عن ناظره أمر بإعداد القفازات ليقوم بتمرينه اليومى فى الملاكمة ؛ ولكن المرن لاحظ شرود ذهنه ، وشدة ضرباته على غير المعتاد ؛ وفجأة رآه يلقى القفاز جانباً ، ويخرج مسرعاً ، ويختفى بقية اليوم فى حجرته .

وأبت الظروف إلا أن تضاعف من مضايقات بايرون ، فقد ظهرت مقالة فى إحدى الجرائد تحت عنوان « لورد بايرون »

كتبها صحفى أهين فى ديوان الهجاء منذ عامين ، فلما سمع بعودته كتب المقال لينتقم من شاتمه . وأطلق على الشاعر مختلف النعوت فسماه « الابن غير الشرعى » و « الوارث القاتل » و « العربيد الحقير » و « ابن امرأة قضت أيامها فى هذيان الثملة » .

وفى غمرة حزنه على أمه ، وغضبه من المقال ، علم أن ولاة الأمور يعارضون فى طبع « الطفل هارولد » بسبب إلحاد مايتناول الروح وخلودها ، ثم طفح الكيل عند ما سمع بغرق صديق له . وجن جنون بايرون، وثارت ثائرته على الدنيا، والأقدار والناس، فكتب وصيته المشهورة التى أمر فيها بأن يدفن بجوار كلبه بوتسوين ، وألا يصلى أحد على جثمانه ، وأن تباع نيوستيد ويرسل ثمنها إلى الصبى نقولا جيرود فى اليونان !

ولكن المصائب عادت تتراجع دفعة واحدة ثم تتفرق كذلك دفعة واحدة : فقد تغلب دالاس على اعتراض ولاة الأمور ، وطبع الديوان ، وظهر فى اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٨١٢ ، ونال الكتاب نجاحاً منقطع النظير ؛ فأقبل الناس على قراءته ، واشتروا مئات النسخ منه . وتألق اسم المؤلف فجأة فى سماء الشهرة وأصبح لورد بايرون موضوع حديث الناس ، وسعى الكل إلى

معرفته ، وفتحت أبواب القصور أمامه ، وسجدت النساء لجماله ، فقال جملته المأثورة :

— استيقظت ذات صباح فوجدت نفسى شهيراً .

وطابت الأمور ، وهدأت نفسه ، ولكنه خرج من تلك التجربة القاسية بصفات جديدة ، وهى صلابة القلب ، وموت العاطفة والإحساس ؛ فمما لا شك فيه أن الأحزان إذا هصرت القلوب دفعة واحدة ، تركتها حطاماً بالياً ، وقتلت فى نفوس أصحابها القدرة على الألم وتقدير النكبات ، والشعور المرهف الدقيق . وهكذا كان الحال مع شاعرنا : فقد تذوق أشد أنواع الألم ، فهان كل ألم عليه ، وتزعزع إيمانه فى الأقدار فتحداها ؛ وامتلأ قلبه بالاحتقار للناس ، فعاش بعد ذلك للانتقام منهم. ولما يئس من أن يجد من يحبه أحب هو نفسه ، وجعل من شخصه موضع عنايته واهتمامه ، وقضى الأيام فى عبادة هذا الشخص و إشباع رغباته وملاذه .

***

لا شك أن ديوان « الطفل هارولد » جلب لبايرون الكثير من المتع التى لم يعرفها ، أو يتذوقها من قبل ، ولكنها كانت

متعاً زائلة ، تشبه الأيام فى تقلبها والأعوام فى دورتها . ولعل الأمر الوحيد الذى اكتسبه حقيقة هو صداقته الجديدة للشاعر توماس مور : ولقد بدأت العلاقة بين الاثنين بأن عرض بايرون به فى هجائه ، فغضب مور وصمم على أن يمحو الإهانة بالدماء ، فأرسل خطاباً إلى شاتمه يطلب مبارزته ، ولكن الخطاب وصل بعد سفر بايرون إلى اليونان فلم يتسلمه . و بقى المظروف مغلقاً فى مكتب المحامى هنسون خلال غيبته . فلما عاد بايرون ، وعرف محتويات رسالة مور ، كتب إليه فى الحال يشرح سبب التأخر فى الرد ، و يظهر استعداده للمبارزة إذا كانت الرغبة ما زالت متوافرة ولم تكن الرغبة إذ ذاك متوافرة : إذ تزوج توماس مور وأنجب طفلاً ، فتغيرت وجهت نظره ، وغلت حياته . وانتهى الأمر بأن توسط بعض الأصدقاء بينهما وجمعوهما للمرة الأولى معاً ، وخرج الاثنان من الاجتماع على أتم صفاء وتفاهم ، وربطتهما الصداقة معا رباط بقى قوياً خالصاً إلى النهاية .

٤

هبطت الشهرة المفاجئة على بايرون ، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . وكان إذ ذاك قد اكتمل جماله ، و بلغ حسنه درجة تأخذ بمجامع القلوب : فشعره كستنائى غزير يتهدل فى تموجات طبيعية رائعة ؛ وقوامه نحيف رشيق ، وجلده باهت شفاف كأنه من البلور ... فمه صغير ممتلىء الشفاه ، وعيناه زرقاوان يشوبهما ظل رمادى ، وصوته موسيقى رخيم حتى سماه الأطفال « الرجل الذى يتحدث كالموسيقى » . ولما كان بايرون قد أصبح — كما ذكرنا — موضع عبادة نفسه وتقديسها فقد رعى ذلك الجمال وتعهده بعناية فائقة . وعند ما تفتحت أبواب القصور أمامه ، لم يهبط على من فيها شاعر عظيم فحسب ، بل هبط أيضاً وجه ملائكى خرت له النساء ساجدات .

ودخل المجتمعات الجديدة بقلب حديدى ، أفقدته الآلام حساسيته ورقته ، وأقبل على معارفه الجدد بسخرية لاذعة واحتقار أملتهما صدمات المجتمع وغدر الناس ؛ فانتوى أن يقبل على الظروف الحديثة ليستفيد لا أن يفيد ، و يمتص رحيقها الحلو

ثم يلقى به ينبق فى غير أسف أو رحمة . و بين يدى هذا الرجل الذى ضردته الظروف ، وأورثته الحوادث قسوة بالغة ، سقطت ليدى كارولين لامب وهى تخبط فى مجاهل حب خطير .

* * *

ولدت ليدى كارولين من أب غنى ، وتقلبت على فراش ذهبى ، فلم تر من الحياة إلا ناحيتها البراقة . ومرضت أمها بعد ولادتها بزمن قصير . فعاشت الصغيرة فى رعاية خالتها دوقة ديفونشير ، وتربت وترعرعت فى رفقة أولاد هذه الخالة ؛ ولم يكن فى كل انجلترا أطفال أهملت تربيتهم كأطفال الدوقة ، وبين هؤلاء نالت كارولين قسطاً وافراً من الإهمال والتربية الفاسدة . . .

ولاحظت جدتها ليدى سپنسر البيئة الخطيرة التى تعيش فيها حفيدتها ، فانتزعتها منها وضمتها إلى أحضانها ، وحاولت جهدها أن تصلح ما فسد ؛ ولكنها لاحظت فى الفتاة شذوذاً دعا إلى استشارة الأطباء فى حالتها ؛ وقرر الأطباء أن كارولين عصبية المزاج إلى حد خطير ؛ ولذلك يجب ألا تجهد بتعلم أو تثقيف ، ونصحوا ببقائها على مبعدة من الناس ، وإلا انتهى أمرها

بالجنون . وكانت النتيجة أن بلغت الفتاة سن العاشرة قبل أن تتعلم القراءة والكتابة ، وتلقت دروسها الأولى وهى فى الخامسة عشرة فأظهرت ذكاء فذًّا ، وأتقنت اللغات القديمة والحديثة ، وبرعت فى الموسيقى والرسم ، ولكنها ظلت على شذوذها ؛ فلم تكن تعنى بهندامها أو بسلوكها .

وتعرفت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها بوليم لامب ابن ليدى ملبورن الشهيرة ، فأحبته ولكنها رفضت الزواج منه لخمول اسمه إذ ذاك . ولم يمض وقت طويل ، حتى تألق اسمه فى سماء الشهرة ، وأصبح الوارث الوحيد للقب لورد ملبورن ، وتقدم إليها ثانية فقبلت الزواج منه وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وفى يوم الزواج تشاجرت مع القس ومزقت ثوب عرسها ، وسقطت فى بهو الكنيسة مغمى عليها ! وحملها الناس هكذا إلى بيتها الجديد ، وهمس الكل قائلين : "لن يدوم هذا الزواج !"

وتألق اسم كارولين لامب فى سماء مجتمعات لندن الأنيقة ، وأصبح بيتها ملتقى النبلاء والأدباء والشعراء ، وتجمعت حولها القلوب لرشاقتها وشذوذها . وأنجبت أطفالا لم يعش منهم إلا صبى واحد .

وعند ما بلغت الرابعة والعشرين من عمرها ظهر ديوان « الطفل هرولد » ، فاشترت النسخة الأولى منه وقرأتها ، فعجبت بالجرأة الأدبية التى تسود أبياتها ، والروح الحزين الذى يضفى على الكلمات ، والموسيقى الشعرية الرقيقة . وأبت رغبتها إلا أن ترى المؤلف ، ولكن صديقه مور أراد أن يثبط عزيمتها ، فقال لها :

— إن بايرون قبيح الشكل ، ملتوى القدم ، يقضم أظفاره كالبلهاء !

فصممت على مقابلته ولو كان فى « قدح الشيطان » . وقابلته فعلا فى بيت صديقة لها ثم إن رأت وجهه وهو يقترب منها حتى ارتدت على أعقابها ، وأبت أن تصافحه . وفى هذه الليلة كتبت عنه فى يومياتها تقول :

« مجنون . . . شرير . . . من الخطر معرفته » .

ولكن هاتفاً ما جعلها تضيف :

« هذا الوجه الجميل الباهت قد قدر على » .

وبعد يومين قابلته مرة أخرى فتعرفت به ، ودعته إلى زيارتها فى قصر ملبورن حيث تعيش مع حماتها ليدى ملبورن .

وبعـــد الزيارة الأولى أصبح لورد بايرون هو الضيف اليومى لهذه الأسرة .

واقتصرت العلاقة بادئ الأمر على حب أفلاطونى برىء : فكان يقضى الصباح معها فى حجرة الاستقبال ، يداعب طفلها ويحدثها عن نفسه ، ويرسم له صورته فى الشكل الذى يعجبه ؛ وحدثها بأجداده وباللعنة التى تطارد كل من ينتمى إلى أسرته ، ووصف لها حزنه الدائم ، وإيمانه المتداعى ، واحتقاره للمجتمع والناس ، فلم ترتدع ، بل زادت حباً له . ولم يمض وقت طويل حتى غرقت فى حبه إلى أذنيها ، فهاجمته ، وطاردته ، وفرضت نفسها عليه حتى بادلها الحب كارهاً .

وكان بايرون يعرف نقائصها جيداً ، ويحب زوجها ويحترمه ؛ فاتصل بها وقد امتلأ قلبه باحتقارها وازدرائها ، وتعجب فى نفسه كيف تخون هذه المرأة زوجاً كريماً طيباً ، ولكن ضعف آل بايرون وحيوانية أخلاقهم حال دون ابتعاده عنها . وإذا قام الحب على أسس من الاحتقار فلا سبيل إلى السعادة بعد ذلك ، وهذا ما حدث بالضبط ، فقد اتخذها خليلة ولكنه سامها أنواع الذل والمهانة . وزادتها القسوة جنوناً على جنون، وحباً على حب .

فكان إذا غضب منها يوماً وقفت أمام بيته فى الطريق العام إلى مطلع الفجر، تنتظر عودته لتسأله الصفح والغفران . و إذا دعى إلى حفلة دونها ، وقفت بجوار عربته تحت الأمطار متسفلة ، تمتع النظر برؤيته عند انصرافه . وتقتحم بيته علانية، وتكاتب خدمه ليسهلوا لها سبيل الدخول فى زى خادم وهكذا كانت سيدة لنبيلة تحط من قدرها ، فتريد احتقار عشيقها لها

وبقى وليم لامب يرقب طيش زوجته فى سكون ؛ فقد كان يحبها ولا يستطيع فراقها . ولم يتدخل خشية أن يثير التدخل عنادها ، فتمعن فى تصرفاتها وجنونها . وخيل إليه أن زوجته تعانى الحمى البايرونية التى تفشت بين النساء أخيراً فألقت بهن جميعاً تحت أقدام الشاعر الجميل ، وعندما تزول هذه الحمى وتهبط حرارتها ، ستعود كارولين إلى سابق عهدها و إخلاصها .

وفى بيت كارولين عرف بايرون حماتها الليدى ملبورن فأعجب بعقلها وسعة تفكيرها ، وزالت الكلفة بين الاثنين ، فحدثها بعلاقته بزوجة ابنها واحتقاره لطيشها ، وحدثته هى بامتعاضها من استهتارها ، وتحديها لتقاليد المجتمع وعرفه . ومنذ ذلك العهد أصبحت ليدى ملبورن كاتمة سره ، يحدثها بكل ما يعتمل فى قلبه،

ويكاشفها بمختلف أسراره مهما بلغت تلك الأسرار من خطر .

واتفق بايرون مع ليدى ملبورن أن يضع حداً لعلاقته بكارولين ، فقد جاءت أمها لزيارتها بعد أن سمعت عنها مختلف القصص والأقاويل ، ورأت أن تصحب ابنتها فى رحلة إلى إرلندا لتبعدها عن حبيبها ، وتخفف حدة الرأى العام . وبعد إلحاح خضعت كارولين وسافرت ، ولكنها ظلت تكتب لبايرون كل يوم ، تبثه لواعج شوقها ، وتهدده بالعودة إن لم يجب رسائلها . ولم يجد أمامه سبيلا للخلاص إلا الهرب من لندن ، فقبل دعوة آل أكسفورد ، وسافر إلى قصرهم فى الريف . وهناك وقع تحت سحر ليدى أكسفورد ، فشجعته على قطع علاقته نهائياً بكارولين ، وأملت عليه خطاباً أرسله إلى خليلته القديمة يقول فيه:

« لم أعد أحبك . . . وما دمت تضطهديننى بتلك المطاردة التى لا تناسب الأنوثة ، فاعلمى إذن أننى متعلق بسيدة أخرى ، يمنعنى الشرف من ذكر اسمها . . . وسأذكر بالشكر اللحظات العدة التى تمتعت فيها باهتمامك . . . وسأبقى دائماً صديقك ، إن سمحت لى أن أكون كذلك . وأول برهان على حسن مقصدى نصيحتى هذه : أصلحى غرورك المزرى وانشرى

نزغاتك الشيطانية على غيرى ، واتركينى فى سلام » .

***

شغل بايرون بحياته الجديدة عن كتابة الشعر ، وانقضت لياليه فى الحفلات والمغازلات ، ومرت الشهور أولاً فى صراع مع كارولاين ؛ وثانياً فى الخضوع لسحر ليدى أكسفورد وجمالها ، فانقطع الوحى واستسلم للهو والدعة . وكانت هذه طبيعة بايرون الحقة : فإذا حزن وتألم فاض بالشعر قلمه فى سهولة وقوة وعذوبة ، وإذا سعد وهدأت ثورته هدأ الوحى بهدوء نفسه وضعف بضعف ثورته . وظل على هذا الحال طوال حياته ، فسجلت أيام الشقاء أروع قصائده وأكثرها خلوداً .

ومنذ عودته من رحلته حتى عام ١٨١٣ لم يكتب بايرون ما يستحق الذكر ، وكل ما نظمه قصيدة « الفالس » وطبعها دون اسمه . وبعد ذلك كتب أولى قصائده الرومانتيكية « الكافر » ، وهى قصة شعرية تدور حول التكفير والتوبة ، فنرى الكافر يسرق زوجة حسن الذى يثأر لشرفه المسلوب ، فيغرقهما ، أما الكافر فينجو ويعود لقتل حسن ؛ ثم يأوى إلى دير يقضى فيه بقية عمره فى التكفير والتوبة .

وهذه القطعة أيضاً طبعت بطابع مؤلفها كما هو الحال فى « الطفل هارولد » ، وكشفت عن وحدته النفسية ، وشعوره ضد الأقدار والبشر ، ونالت نجاحاً عظيما لأن الناس قرأوا بين سطورها حوادث الشاعر نفسه وآراءه ومعتقداته .

***

فى بادىء الأمر لم تقنع كارولين لامب بالهزيمة ، فأمطرت بايرون — كما ذكرنا — بالخطابات الحارة ، والتهديدات الشديدة . ولم تكتف بذلك بل التجأت إلى خليفتها ليدى أكسفورد ترجوها أن تتوسط لديه ، ليصفح عنها ، ويغفر لها طيشها ، ويعود إلى حبها ! . ولما وصلها خطابه الشديد انتهى صراعها ، وتداعت قوتها ، ومرضت مرضاً خطيراً كاد يودى بحياتها . وعندما تماثلت للشفاء بلغ بها الضعف والهزال درجة أدهشت الناس . وعند عودتها إلى لندن ظلت ترجو وتلح فى أن ترى حبيبها مرة أخيرة ، فأشفقت حماتها ليدى ملبورن عليها ، واقترحت أن تتم المقابلة بشرط حضور شخص ثالث معهما . وطلب بايرون أن يكون الشخص الثالث هو ليدى أكسفورد ! . ولم تتم المقابلة بسبب هذا الشرط .

وجن جنون ليدى كارولين فأقامت حفلة كبيرة أحرقت فيها تمثالا صغيراً لحبيبها . ورقصت خادماتها حول النيران ، وفى نهاية الرقص ألقت فيها خصلة شعره التى تحتفظ بها ، ونسخاً من خطاباته ، وختمت الحفلة بقطعة شعرية من نظمها ، وأرسلت إليه تفصيل هذا العمل الجنونى ، فازداد احتقاره ومقته لها .

ولم تنته المأساة عند هذا الحد . ففى اليوم السادس من شهر يونيه عام ١٨١٣ أقامت إحدى النبيلات حفلة راقصة ، وتقابلت فيها كارولين مع بايرون ، فتبادلا بضع كلمات قاسية ، وانتهت بأن اختطفت سكيناً من فوق المائدة وشهرته فى يده ، فنظر إليها فى احتقار و برود وقال :

— هيا يا عزيزتى ، ولكن إذا كنت تلعبين دور البطولة ، فأحسنى اختيار ضحية سكينك ؛ ولتكن الطعنة إلى قلبك أنت ، أما قلبى فقد طعنته كثيراً من قبل !

ثم دار على عقبيه وترك الغرفة . لم يعرف المدعوون ما حدث بالضبط ، ولكنهم رأوا ليدى كارولين تجرى بينهم ، والسكين فى يمينها والدماء تسيل من ذراعها الأخرى ، ثم تمايلت وسقطت على الأرض مغمى عليها . وكان بايرون فى ذلك الوقت يتحدث

مع إحدى السيدات فى حجرة أخرى ؛ فلما سمع ما حدث قال فى برود :

— " ألعوبة أخرى من ألاعيبها المعهودة ! "

و بعد ساعات قليلة عرف أهل لندن جميعاً ما حدث ، وكتبت الجرائد القصة تحت عنوان « فضيحة كبرى » ، وثارت ثائرة الرأى العام ، ومع ذلك عاد الشاعر يوماً إلى بيته ، فوجد ليدى كارولين قد اقتحمته قبل حضوره ، وخطت على الصفحة الأولى من كتاب من كتبه كلمة « اذكرنى » ، فتناول القلم وفى الحال نظم تحت كلمتها قصيدته الشعرية المعروفة :

« أذكرى ... واذكرى ... حتى اليوم الذى تكون فيه »
« الجحيم مثواك ، أن الندم والعار لن يتركك . »
« أذكرى ... واذكرى جيداً أن زوجك أيضاً لن ينساك ، »
« فكلانا سوف يذكرك : خئنة له شيطانة لى . »

وفى خلال كل هذه المطاردات الجنونية ، كانت كراهية بايرون لها واحتقاره إياها يزدادان ، ولازمه الشعوران طيلة حياته ، فظل يذكرها بالشر إلى يوم مماته .

٥

خرج بايرون من علاقته بكارولين منهك الأعصاب ثائر النفس ، وانضوى تحت لواء ليـدى أكسفورد عسى أن يجد الهدوء . وسعد معها بعض الوقت ، وقرر أن يسافر فى صحبتها إلى أوروبة . ولكنه كشف أن الحبيبة الجديدة تشرك الكثيرين معه فى قلبها ، فغضب الشاعر الشاب ، وعدل عن الرحيل .

وعاد إلى لندن حزيناً كاسف البال ؛ فقد كان فى الماضى ينعى فراغ حياته ، وحرمانه من العطف والحب . وظل منذ طفولته فى بحث دائم عن هذا الحب ، وعندما وجده أخيراً ذاق منه الأمرين . وهدمت الصدمات المتكررة بقية ثقته بالمجتمع ، وتضاعف احتقاره للبشر ، وزادت عقيدته إيماناً أن المرأة لا تعرف مبادىء الشرف والإخلاص . وفى غمرة ثورته النفسية الجديدة ، وصلته الأنباء بقرب وصول أخته لأبيه أوجستا .

كانت أوجستا بايرون قد تزوجت منذ سنوات بقريب لها اسمه « كولونيل لى » ، وهو رجل مقامر عربيد ، لم يرع للزواج حرمة ، فجعل ينفق نقوده بسخاء على الخمر والمقامرة والنساء .

وعند ما أنجب أطفالا ثلاثة ، كانت الثروة قدتبددت ، وارتبكت حالته المالية مما دعا الزوجة إلى الرحيل . وعلى الرغم من خياناته المتكررة وإسرافه الشديد ظلت أوجستا أمينة على عهده ، تحبه وتخلص له ، وتعنى بأطفالها ، وتحسن على الفقراء ، وتساعد الضعفاء مما جمع القلوب حولها .

وفى شهر يونيه عام ١٨١٣ وصلت أوجستا إلى لندن ، واستقبلها بايرون فرحاً ، فلم يكن قد رآها فى حياته إلا مرة واحدة منذ سنوات . وأعجب بأخلاقها البسيطة ، وثيابها الأنيقة ، وقوامها اللدن . وقارن فى نفسه بينها و بين أمه الخشنة ، فازداد تعلقه بها .

ولم تكن أوجستا ذكية أو مثقفة . بل هى محدودة التعلم ، بسيطة التفكير أقرب إلى الغباء منها إلى الذكاء . وهى تمتاز بالمرح الدائم ، وخفة الروح . والمهارة فى تقليد الناس بطريقة مضحكة . وهى أيضاً فطرية إلى حد بعيد ، تحب كل شىء ولا تحب شيئاً ، لا تعرف من الحياة إلا ناحيتها المرحة البراقة ، وتعيش لحاضرها فقط ؛ فلا يهمها الماضى ولا تفكر فى المستقبل .

ووجد بايرون فى هذا اللون الجديد المثل الأعلى للمرأة التى

تعجبه . . . والمرأة التى تعيش قانعة فى حدود طبيعتها ولا تحاول الخروج عنها .

ولعل أعظم ما جذبه إليها هو التشابه الكبير بينهما فى الخلْق والخلق : فهى خجلة حيية تنفر من الناس وتميل إلى الوحدة ، وشعرها كستنائى مجعد كشعره ، وفمها صغير ممتلىء الشفتين ، ولونها باهت شفاف . ودهش أن وجد شبيهاً له فى الحياة من حيث الشكل والأخلاق والطباع ، فجعل يتأمل هذا الشبيه بعجب وإعجاب .

وكانت حياة بيرون إلى هذه اللحظة خالية مجدبة : ففى طفولته قاسى الشقاء على يدى أمه ومربيته ، وفى المدرسة لقى العذاب بسبب عرجه وكبريائه وفى عالم النساء منى بالصدمات ، وبين الأصدقاء رأى الخيانة والرياء . وتلفت حوله فلم يجد ما يحبه فأحب نفسه ، وجعل من شخصه معبوده الوحيد ، وقضى الأيام فى إرضاء هذا المعبود وإشباع رغباته وملاذه . وفجأة وجد شبيهاً لمعبوده ؛ شبيهاً له فى كل شىء ، فعبده دون أن يشعر ، وأشركه فى حبه العظيم لنفسه . وهدأت نفسه فى صحبتها ، فقد كانت تحبه لشخصه ، ولم تهمها قدمه العرجاء ، ولم تأبه لفقره أيام

طفولته ، ولم يخفها شذوذه ، ولم ينفرها كفره وإلحاده ، وكلها أمور أبعدت قلوب غيرها من الناس عنه ؛ وملأت أوجستا فراغ حياته فكان يخرج فى صحبتها نخوراً ، ويقدمها إلى أصدقائه فى تيه وإعجاب .

وبعـــد ثلاثة شهور عادت إلى بيت زوجهـــا فى « سيكس مايل بوتوم » .

* * *

عندما ابتعدت أوجستا اختلى بايرون بنفسه يناقشها الحساب فعاودته آلامه ، وتملكه حزن شديد ، وأقبل على الخمر عسى أن يهرب من ضميره . ولكن ذلك الضمير أطبق عليه وطارده فى كل مكان حتى على مائدة الشراب .

ودارت أفكاره حول العلاقات المحرمة ، ولم يستطع كبح جماح قلمه ولسانه : ففى الحفلات والمجتمعات يطرق موضوع هذه العلاقات ، ثم يدافع عنها فى حرارة وقوة ؛ وعندما ينصرف ينظر الناس بعضهم إلى بعض فى قلق ، وتشكك ، ودهشة وهكذا فضح بايرون نفسه وأثار الشكوك نحوه بلسانه وكتاباته ، وغرس بيده بذور الفضيحة التى قضت على سمعته فيما بعد .

وأكبّ بايرون على أوراقه يقرض الشعر كما هى عادته فى كل ثورة نفسية . وانساب به القلم فى سلاسة وعذوبة ، وتسللت آلام قلبه إلى القصائد فخرجت قطعاً فريدة فى عالم الأدب . وأتم قصته الثانية « عروس أبيدوس » وهى قصة تركية تدور حول هذا الموضوع وبطلتها زايخا تحب أخاها سليماً :

« سليم : يا أعز الأحباب . . . خبرنى، أتكرهنى أم تخشانى ؟ »
« تعال ، وضع رأسك على صدرى فأقبلك حتى الهدوء والمنام »
« أتظن أننى أحتمل فراقك ، فأشطر قلبى نصفين ؟ »
« لو انتزعوك منى فقدت أنت حبيبتك . وفقدت أنا مرشدى : »
« ولم تعرف الدنيا ، ولن تعرف ، اللحظة التى تشتت بين روحينا ، »
« وعند ما يهبط عزرائيل بصوجانه المخيف ليفرق الأحباب »
« سيميتنا حتماً ، ولكن يتحد قلبانا فى التراب . »

وأتم هذه القصيدة فى أسبوعين فقط ، مع أنها تبلغ مائتين وألفاً من الأبيات ، لأنها كانت صورة من حياته ، وطبعها ونشرها ، ووضع فى الصفحة الأولى سطراً يقول : « الجزء الأول مأخوذ من ملاحظات فى حياتى » وبهذه الجملة أثبت شكوك الناس وأقاويلهم .

ولم يمض وقت طويل حتى كتب قصة شعرية أخرى هى « القرصان » ، و بطلها كنراد يشبهه تماماً : فهو خجول يميل إلى الوحدة ، وينفر من الناس . حكمت الأقدار عليه بالشر ، فاندفع إلى الجريمة دون رغبة أو إرادة . وتخدعه الحياة ، ثم تصدمه أحداثها ، فيعلن الحرب على المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن أجل أخطاء البعض يصب جام شره على الكل . وتصجم المصائب عوده ، فينكر التوبة ، ويزدرى التكفير ، ولا يطلب الغفران . ولا يرق قلب البطل الشيطان إلا لشخص واحد فقط هى حبيبته « ميدورا » .

وقدم هذه القصيدة أيضاً بجملة تفضح سره : « مأخوذة من تجارب شخصية » ، وتبعه بكلمات تقسو : « فكره لا تستطيع الهدوء فى قلبه » . وهكذا كان بايرون دائماً ضعيفاً ، لا يعرف السيطرة على لسانه أو قلبه ، عبقرياً فى التحدث عن نفسه وأعماله ، فلقد شاءت الدنيا التى حرمته الحب أن تصبح نفسه معبوده الوحيد .

* * *

وتطايرت الإشعاعات فى أنحاء البلاد ، وضج المجتمع صاخباً

غاضباً ، وتناقل الناس كتاباته وأقواله التي يشير فيها إلى خطيئته : وسرهم جميعاً أن يتلوث اسمه ، بعد أن أثار حوله الكراهية بعلاقاته النسوية ، وكبريائه الشديدة ، وتحديه لسياسة البلاد بتمجيد عدوها نابليون . وبدأ نجمه في الأفول رجلا ، وفي الصعود شعراً . وأغلقت أبواب القصور أمامه ، ولكن كتبه نالت أعظم درجات النجاح . ووقف بايرون يشهد هبوط مجده ، فتحرك غضبه البايروني ، وازداد سخطه على الدنيا فتحداها بجنون ، ومنح أخته ثلاثة آلاف من الجنيهات ، وكتب قصيدة هي أجمل ما نظم في حياته :

« حرام أن يجري اسمك على لساني ، أو يخطه قلمي ، »
« ففي نغماته حزني ، وفي قصـــتنا خطيئة ! »
« والدمع الذي يسيل على خدي فيحرقه ، »
« يعبر عما يختلج قلبي من أفكار حزينة ، »
« والساعات التي مرت بنا ، قصيرة لم تشبع لنا رغبة ، »
« طـــويلة في تعذيبها للضـــــمير . »
« فمتى تنقضي مرارة تلك الساعات وحلاوتها ؟ »
« لتكن السعادة من نصيبك ، ولتقع الخطيئة على ، »

« فاغفرى أيتها المعبودة ، واهجرى إن شئت ، »
« ولكن قلبى الذى وهبته لك سيبقى خالصاً ، »
« ولن تحطمه الدنيا مهما فعلت . »
« وستبقى نفسى فى ظلامها الحالك ذليلة لك ، »
« ولو ركع العالم تحت قدمىّ لما بلغ سعادة قربى منك . »
« آهة منك تشقينى ، ونظرة منك تسعدنى ، »
« وستعجب الدنيا لما أضحيه.فندعها جانباً. ونواصل الحب »

ولكن بايرون على الرغم من عناده وصلفه ، كان يتمنى لو استطاع الخلاص ؛ وفكر فى الزواج وسيلة لإنقاذه ، ثم تراكمت الديون ، وتضاعفت أرقامها ، وازدادت إلى درجة خطيرة . وبعد تردد صمم على إتمام فكرته ، وقرر أن يربط حياته بحياة فتاة عاقلة غنية ، تنقذه بعقلها من جنونه ، وبمالها من ديونه ؛ فتقدم يخطب الآنسة « أنابيلا ميلبانكى » ابنة أخى صديقته وكاتمة سره ليدى ميلبورن ، وتزوج منها وهو فى السابعة والعشرين من عمره .

٦

كانت أنابيلا ميلبنكى الابنة الوحيدة لسير رالف ميلبانكى شقيق ليدى ملبورن . ولدت وترعرعت فى قصر والدها فى الريف ، ونشأت بين أيدٍ قوية حكيمة ، فنالت قسطاً عظيماً من الثقافة ، وتشبعت بمبادئ الدين ، واشتهرت بين الناس بالتقوى والحكمة والهدوء ؛ وعند ما ظهر ديوان « الطفل هارولد » قرأته كغيرها ، وأعجبت به ؛ ثم سافرت إلى لندن لتقضى فيها بضعة أسابيع .

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٨١٢ أقامت كرولين لامب حفلة راقصة صباحية ، ودعت إليها خيرة المجتمع ، ومن بينهم أنابيلا ابنة خال زوجها . ووجدت الضيفة أن الجو الذى يسود المكان لا يناسب خلقها الهادىء ، فجلست عن كثب ترقب الجميع . ودخل بايرون ، فأحاطت به السيدات وتهافتن على خطب وده ، والتقرب إليه ، فلما جاء دور أنابيلا رفضت التعارف به ، خشية أن تنضم إلى زمرة المعجبات . وبعد بضعة أيام قابلته مرة ثانية ، فوجدته هادئاً خجولاً ، وتبادلا

الحديث ، فكان أول ما قاله أن أبدى دهشته الشديدة ، من أن تقبل الاتصال بمجتمع كهذا « لا يقوى فرد فيه على مواجهة ضميره أو مناقشته الحساب ! » ولم تمض دقائق معدودات حتى فتح لها قلبه ، وحدثها بآلامه ، وبكراهيته لمثل هذه المجتمعات ، وحبه للهدوء والوحدة . وأعجبها حديثه ، وتبينت فيه شخصاً آخر يختلف تمام الاختلاف عما سمعته من قبل . وانتهى الأمر عند هذا الحد ، وعادت أنابيلا إلى الريف لتستأنف حياتها نس كنة . ولكنها لم تنسه ، فلما كتبت بضع قصائد صغيرة ، أرسلتها إلى كارولين ، وطلبت منها أن تستطلع رأى الشاعر الجميل فيما نظمته . وكانت إجابة بايرون : « إنها فتاة ممتازة ، فمن كان يظن أن مظهرها الهادىء يخفى قوة كهذه ، وتنوعاً فى التفكير ؟ ولكنى لا أريد أن أستزيد من معرفتها ، فهى أسمى من أن تتصل بملك ضال مثلى ، ولو كنت أقل كللاً مما هى عليه لأعجبتنى أكثر » . وكانت هذه أيضاً هى عقيدة الكثيرين فى نابيلا .

وعندما اشتد طيش كارولين فى عام ١٨١٤ وتضاعف استهتارها ، فكر بايرون فى أن يتزوج ليضع حداً لعلاقته بها .

وكاشف ليدى ملبورن برغبته فى الزواج من أنابيلا ، وكلفها الاتصال بها وتبليغها الرسالة . ولم يكن طبعاً للحب نصيب فى هذه الفكرة ، فترددت الصديقة بعض التردد لاختلاف الاثنين فى التربية ، والمبادىء ، والأخلاق ، مما لا يبشر بسعادة مقبلة ؛ ولكنها اقتنعت بصدق رغبة بايرون ، فأرسلت إلى ابنة أخيها تكاشفه بالأمر . ولكن أنابيلا حكمت عقلها كعادتها ، ورفضت فى أدب بحجة كاذبة ، وهى أنها متعلقة بشخص آخر . ولما علم بايرون برفضها ، ازداد اهتمامه بها ، لأنه لم يعهد رفضاً من امرأة قبلها . أما هى فقد داخلها سرور عظيم أن استطاعت جذب الشاعر الجميل الذى جنّت به نساء انجلترا . وعلى الرغم من رفضها الزواج منه ، ظلت تفكر فيه ، وتتبع حركاته وسكناته ، وتصغى إلى ما يتناقله الناس عنه من أقاويل ، وبذلك فضحت — دون أن تشعر — حبها الخفى له .

وعند ما تهامس الناس بأمر علاقته بأوجستا ، وصلت الهمسات إليها فى الريف ، فاشتد بها الحزن . وأصبح بايرون بعد ذلك محور تفكيرها الدائم ، وساءلت نفسها : أحقاً هو شرير كما يقولون ؟ ولكن قلبها أجابها بغير ذلك . و بعد طول التفكير

ظنت أنابيلا أنها قد اهتدت إلى موطن الداء فيه : فأخطاؤه جميعاً نتيجة سوء* تربيته الأولى ، وما شروره إلا قشرة زائفة تخفى تحتها صفات نبيلة طيبة ، لم تجد مجالا للظهور . واقتنعت أخيراً أنه ملك غوى ، وعليها أن تنقذه من غوايته فترد إليه إيمانه بتقواها ، وتشفى جروح قلبه بعطفها ، وتزيل عنه بإخلاصها تلك القشرة التى كوّنتها الأيام الخائبة . ولقد صدقت أنابيلا فى شرحها للداء ، ولكنها لم تتبين أبداً ، أن الإصابة قد استفحلت وباتت حداً لاعلاج له . وبدافع أملها الخادع بدأت تراسله ، فارتفعت الكلفة بينهما ، وعند ما أطبقت الفضيحة عليه ، وجد الطريق ممهداً ، فتقدم ثانية إليها ، وفى هذه المرة قبلت الزواج منه دون تردد .

وأقبل بايرون على الزواج ، بعقيدة تختلف عن عقيدتها كل الاختلاف : لم يكن يحمل لها حباً ؛ وظن أنها أيضاً لا تحبه ، ولذلك بنى أملا واسعاً فى حياة طيبة مقبلة . فقلبه فى شغل بأوجستا عن أية امرأة أخرى ، ومن الحكمة إذن ألا يدخل الحب فى زواجه بعد ذلك ، ويكفيه أن تصبح امرأته المستقبلة قائدة له فى الحياة ومرشدة . والمرء لا يستطيع القيادة أو الإرشاد

إذا كبله الحب بقيوده القاسية . وأخطأ فى التقدير كعادته ، فلقد كانت أنابيلا تحبه من أعماق قلبها ، بدليل اهتمامها العظيم بتتبع أخباره ، وندمها على رفضها الأول له ، وقبولها ثانية الزواج فرحة سعيدة .

وأخطأت هى أيضاً : فظنت أنه يحبها ويعبدها ، وعاهدت نفسها على أن تكون ملكه المنقذ ، وأن تخلصه من ضلالته بما لحبها عليه من قوة وسلطان ! وبذلك تؤدى خدمة للمجتمع ، وتستحق عند الله الأجر والثواب . وفى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٨١٥ ربط الاثنان حياتهما بعد أن وقفا أمام المذبح على أرض من الخيال والأوهام .

* * *

لم يعد الزواج على بايرون بالفائدة المادية التى كان ينتظرها : فقد ربط سير رالف لابنته معاشاً سنوياً ، قدره ألف جنيه ، تتسلم منه ثلثمائة لنفقتها الخاصة ، وينال زوجها الباقى . وقرر أن يسير على هذا النظام حتى تئول إليها الممتلكات بعد وفاته ووفاة زوجته . وخرج بايرون من الصفقة صفر اليدين ، فالمبلغ

الجديد لايكفى نفقات حياته الزوجية ، وستبقى ديونه على حالها إن لم تتضخم وتتضاعف .

ولم يعد الزواج أيضاً بالفائدة المعنوية المرجوة : إذ تبين أن عروسه تحبه من أعماق قلبها وقد اختارها على غير هذا الظن ! وسيحول هذا الحب دون أن تكون قائده ومرشده ، فالعقل والقلب لا يسيران أبداً جنباً إلى جنب . وتملكه الغيظ والغضب ، وتحرك شيطان الشر فى قلب أفقدته الأيام رقته وحساسيته ، وانتوى أن يعذب المرأة التى ارتكبت — فى نظره — جريمة فاحشة بحبها له . وما كادت العربة تسير بهما إلى رحلة شهر العسل ، حتى انفجر ضاحكا وقال لها فى سخرية لاذعة :

— « لقد ذهبت ضحية خيالك وأوهامك ! أوتظنين — وأنت على هذا الذكاء — أن فى استطاعة امرأة أن تصلحنى؟ يكفى أن تكونى زوجتى لأكرهك . ولو كنت زوجة رجل آخر لأعجبتنى أكثر ! »

ثم تمهل قليلا وقال :

— ستعرفين بعد أنك اقترنت بشيطان مريد !

ونزلت أقواله على قلبها الحار نزول الصقيع ، وتحطمت كبرياؤها. وفى ثورة غضبها استدعت خادمتها ، وأمرتها أن تجلس معهما فى العربة ، لتضع حداً لأقواله المهينة .

ومرت أيام شهر العسل فى مرارة قاسية ، وخيم على العروسين حزن واكتئاب . ورأت من أخلاق زوجها عجباً : تارة يثور فيصب على رأسها جام غضبه ، وتارة أخرى يهدأ فيعطف عليها ويطلب منها الصفح والغفران . وما تكاد تسعد بعطفه لحظة حتى ينقلب وحشاً كاسراً . وفى خلال غضباته يحدثها بأمور جديدة عليها ، فيرتعد قلبها المؤمن الطاهر من مجرد سماعها . ويرى بعينه الثاقبة مظاهر إيمانها ، فيثور ويحاول أن يحطمه وفى المساء يجلس معها ساعات طوالا ، يقنعها بوجهة نظره فى الأديان ، ويردد على سمعها ما تعلمه فى الإسكندرية على يد بترمون وما جرى .

ولم تكرهه أنابيلا أو تحقد عليه ، فقد كان حبها له أقوى من أن تزعزعه مثل هذه الأشياء ، وظل الملك المنقذ ينتظر الفرصة المناسبة للقيام بواجبه ! ولكن شكاً خطيراً بدأ يعذب قلب هذا الملك .

***

بدأت شكوك أنابيلا بعد يومين من زواجها، فقد تسلم بايرون رسالة من أخته أوجستا، تلقبه فيها بأعز الأحباب، فقرأه أمامها بصوت مرتفع، وسألها رأيها فى هذه الكلمات! وبعد ذلك بأيام وجدها تقرأ كتابا، يدور موضوعه حول العلاقة المحرمة، فغضب إلى حد أخافها غضبه وأزعجها. ومع ذلك كان أبداً يدور حول الموضوع ويدافع عنه بحرارة شديدة.

وفى الليل ترى ليدى بايرون أحوالاً عجيبة، فالهواجس تطارد نومه، والأرق يلازمه؛ فينهض من فراشه، ليتفقد غدارته وخنجره ثم يجول فى البيت وحيداً، ليعود منهكا إليها عند مطلع الفجر. وجمعت شجاعتها يوماً فسألته عما يقلقه، فاعترف أنه يكتم سراً دفينا خطيراً، وسيحدثها به عند ما تضع طفلها الأول. وطبيعى أن تشك أنابيلا، ولكن حبها ينكر عليها شكوكها، فتبعدها عن رأسها فى الحال.

وبعد ثلاثة أشهر طويلة قرر الزوجان أن يعودا إلى لندن، وأبدى بايرون رغبته فى المرور وحده على «سيكس مايل بوتوم» لزيارة أخته أوجستا، ولكن ليدى بايرون صممت على أن ترافقه وبعد إلحاح قبل أن يأخذها معه كارها.

واستقبلتهما أوجستا فى شىء من البرود والجمود ، وشغل الأخوان بعضهما ببعض عن أنابيلا ، فقضت ليلتها وحيدة شاردة الفكر .

وتكررت القصة كل ليلة ، فحزنت حزناً بليغاً ، وذبل وجهها وفقدت شهوة الطعام ، وجعلت تعد الأيام ، حتى تعود إلى لندن فيزول عن قلبها ذلك الكابوس .

وتملك ليدى بايرون الرعب الشديد ، فانكبت على الكتاب المقدس تقرؤه كل ليلة ، لتعيد آياته هدوء قلبها المفقود .

ومع كل ذلك أحست الزوجة الطيبة أخت زوجها ، حين غيرت هذه سلوكها بعد اليوم الأول ، وزايلها البرود والجمود ، وعطفت على أنابيلا ، وحمتها من ثورات بايرون وغضباته . وفى كل صباح تجلس المرأتان تتحدثان عن حبيبهما المشترك ، فتمد الأخت الزوجة بالنصح والإرشاد فى أسلوب طعامه وطريقة معاملته ، وعندما انتهت الزيارة كانت ليدى بايرون نهباً لعاطفتين متصارعتين : حبها لأوجستا ، ورعبها من السر الدفين . وضعف جسدها لما تعانيه ، وازداد ضعفها بأعراض الحمل التى ظهرت عليها .

***

نزل بايرون وزوجته لندن ، وسكنا فى بيت أنيق فى شارع بيكاديللى يبلغ إيجاره سبعمائة جنيه سنو ياً ، وهو كل ما أصابه من صفقة الزواج . وتطلبت الحياة الجديدة نفقات كثيرة ، فازدادت ديونه ، ولم يعد إيراد ممتلكاته يكفى أرباح هذه الديون . واشترى بايرون نصيباً فى مسرح « درورى لين » وبذلك دخل عضواً فى مجلس إدارته . ومهد له المركز الجديد فرصة الاتصال بالممثلات ، فانغمس فى الملاذ مرة أخرى ليهرب من شبح الخطيئة الذى يطارده دائماً . وعند ما يعود من سهراته كل ليلة ويرى وجه أنابيلا يمتلىء بالتقوى ، والصبر ، والحزن يتحرك ضميره من مرقده ، فيثور على نفسه ، ويصب جام غضبه على رأس من تحرك ذلك الضمير فى هدوء وسكون .

وعجبت ليدى بايرون لحدته الشديدة ، ولم تستطع عينها الصائبة أن تفهم حالة الصراع النفسى لدى زوجها . وظنت أنه يوشك أن يجن ، فأرسلت تدعو أخته لزيارتهم ، والبقاء معهم بعض الوقت . عسى أن يخفف وجودها حدة أخلاقه ؛ وعارض هو فى الدعوة ، وحاولت جهدها أن تثنيها عن عزمها فلم يفلح .

وعادت الحياة إلى ما كانت عليه فى «سيكس مايل بوتوم» ففى كل ليلة تصعد أنابيلا وحدها إلى حجرتها ، لتنصت إلى ضحكات الاثنين وحديثهما . وازدادت كراهيتها لأوجستا، وندمت على دعوتها وقررت أن تتخلص منها . وأخيراً ذهبت الضيفة البغيضة ، وعادت إلى بيتها ، فهدأ قلب ليـدى بايرون بعض الهدوء ، وظنت أن وقت الأحزان قد ذهب ، وعهد الاطمئنان قد حان .

ولكن الأقدار كانت تقف أبداً لبايرون بالمرصاد ففى ذلك العهد وصلت أخبار تحمل هزيمة نابليون ، وكان الشاعر من أشد المعجبين به ؛ فحزن ، وتحطمت آماله فى سياسة أوربة ، وفقد الأمل فى إمكان وجود جمهورية عادلة تحرر تلك البلاد من قسوة ميترنيخ . وبينما كانت انجلترا ترقص طرباً لنصرها ، كان بايرون ينظم القصائد فى تمجيد البطل المهزوم ووداعه . وعافت نفسه البلاد التى يعيش فيها ، وعاودته الرغبة فى هجرها إلى أقطار الشرق البعيدة . ولعن الزواج الذى يقيده ، ويحرمه حرية السفر والترحال.

وجدّت ارتباكات مالية عدة ، وألح الدائنون فى طلب

أموالهم، ثم حجزوا على أكثر ممتلكاته . وفكر بايرون فى أزمته الشديدة ، فلم يجد إلا أن يحمل أنابيلا أسباب هذه المصائب والنكبات ، وندم على الزواج ، فازدادت قسوته وشراسته . وفى خلال ثوراته يأتى العجيب من الأعمال ، وحدث ذات مرة أن أمسك بساعته الذهبية ، وحطمها على الأرض فى جنون .

وأشرفت ليدى بايرون على الوضع وأحست رغبة شديدة فى أن يلازمها أحد خلال هذه الفترة . وضاق صدرها بالأحزان ، فتمنت لو استطاعت أن تكاشف صديقة أو قريبة بما يؤلمها ؛ فكرت فى أمها ، ثم عادت وخشيت هذه الأم ، فلو عرفت ليدى ميلبانكى بما تعانيه ابنتها لحتمت عليها الانفصال عن زوجها ، وأنابيلا ماتزال تحب بايرون ، وتأمل أن تنقذه فى يوم من الأيام . لم تجد إذن إلا أوجستا فأرسلت تدعوها مرة ثانية ، فلبت الدعوة فى الحال . ودهشت لما عرا أخاها من تغير شديد خلال الأشهر الأخيرة ، وبعد محادثات طويلة قتنعت من أن بأنه مجنون .

وفى اليوم العاشر من شهر ديسمبر عام ١٨١٥ وضعت أنابيلا طفلة جميلة أطلق الأب عليها اسم « أوجستا آدا » . وبعد الوضع

بأسبوعين بلغت الأزمة المالية حداً خطيراً ، فهبط الدائنون على البيت ، وحجزوا على رياشه ، وحددوا للبيع تاريخاً قريباً . وتحت وطأة هذه المصيبة الجديدة أرسل بايرون إلى زوجته فى حجرة نومها ورقة يطلب منها العودة إلى والديها . وجرحت كبرياؤها ، فأجابت برقعة أخرى تقول فيها إنها ستطيع أمره ، وترحل عن بيته ومعها طفلتها حين يسمح لها الطبيب بمغادرة الفراش .

واستدعت الدكتور بيلى لتستطلع رأيه فى حالة زوجها العقلية وصارحته بمخاوفها ، ووصفت له جنون تصرفاته خلال الأشهر الأخيرة . واشتركت أوجستا فى ذلك المؤتمر الصغير ، فطلب الطبيب أن تمهله بعض الوقت يراقب بايرون عن قرب ، ويبدى رأياً فى جنونه أو عقله . وبعد أسبوع أخذت أنابيلا طفلتها الصغيرة آدا وسافرت إلى قصر والدها فى الريف تنتظر رد الطبيب .

٧

دخلت أنابيلا على والديها ، فلم يعرفاها لشدة ما طرأ عليها من تغير ؛ فوجهها ممتقع ، وعيناها ذابلتان ، وجسدها نحيل ، ومظاهر الشقاء والألم تنبعث من كل كلمة أو حركة منها . ولم يكن من المعقول أن وضع الطفلة قد سبب كل هذا ، ولذلك جلس الوالدان يستوضحان الأمر منها ، ويستجوبانها بأسئلة دقيقة حكيمة . وحاولت أنابيلا أن تخفى الحقيقة عنهما ، ولكن ضعفها وحزنها تغلبا عليها ، فقصت على أسماعهما تفاصيل تصرفاته ، وأخفت شكوكها فيما يتصل بأوجستا . وثار غضب سير رالف وزوجته ، ووجدا فى معاملة بايرون لابنتهما مهانة لهما ، ونيلا من كرامة الأسرة ، ولكنها أوضحت لهما فكرة جنونه ، فزايلهما الغضب ، وغفرا له ، واقترحا دعوته إلى الريف ليعالج تحت إشرافهم جميعاً .

وبعد أسابيع قليلة ، وصلت تقارير الأطباء تقول إن بايرون سليم العقل والذهن ، وكل ما يعانيه هو مزاج حاد موروث ، وصفات شريرة متأصلة فيه . وكانت هذه الأخبار صدمة شديدة

لأنابيلا : فلو كان مجنونا لفهمت معنى تصرفاته ومعاملته ، ولعادت إلى بيته لتعنى به وتخدمه . أما أن يكون عاقلا ، فلا مجال لتسامح أو غفران ؛ وفى عاصفة شديدة من البكاء ، قصت على والديها ما سبق أن أخفته . وصارحتهما بشكوكها فى علاقته بأخته ، وشواهدها على هذه الشكوك . وأمام الحقيقة الخطيرة قرر الوالدان فصل ابنتهما عن زوجها بالقانون ، وأرسلا خطابا لبايرون يطلبان منه الموافقة ، وندب محام للتفاهم معه .

وفوجئ بايرون بهذا الخطاب ، ودهش أن تقرر زوجه فجأة مثل هذا القرار ، بعد أن احتملته طويلا ، وأظهرت له من مظاهر الحب شيئاً كثيراً ، فأى داع جديد يدفعها الآن إلى هجره ، واقتطاعه من حياتها هكذا ؟ ! أهى أخلاقه ؟ ولكنها تعرف أن أخلاقه متأصلة فيه ولا حكم له عليها ، وقد غفرت كثيراً من قبل : أم هى أوجستا ؟ وارتد عقل بايرون إلى رأسه ، فرأى الحقيقة الواضحة أمامه ، وعرف أن امرأته خير زوجة فى الحياة ، وسيحطمه هجرها إلى الأبد .

وفى الواقع كان بايرون يحب أنابيلا ، ويقدر صفاتها النبيلة وأخلاقها النادرة ؛ ولولا هذا الحب لما تيقظ ضميره وعذبه ،

فاندفع إلى اللاذ فى جنون هربا منه . أما قسوته عليها ووحشيته فى معاملتها فنتيجة صراعه مع نفسه التى امتلأت بالخزى والعار والندم ، أمام تسامح زوجته ، وإيمانها القوى ، وتقواها الخالصة . ولو كان شخص آخر غيره لما أخذ الصراع فى نفسه هذا الشكل المخيف ، ولكن بايرون اختلف عن غيره من الناس ، وتربى بين الآلام والأحزان ، وصدمته الدنيا بويلاتها ، وأورثه أجداده دماء لا تعرف التعقل أو الهدوء ، وأصابته الطبيعة بإحساس مرهف لم يحتمل قسوة الحياة ، فخفت صوته ومات . وكل هذه الظروف تبرر شذوذه ، وقسوته ، وتصرفاته العجيبة ، وتملأ النفس بالحزن عليه والرثاء له .

ولم يجد بايرون إلا أن يلجأ إلى أوجستا ، فكتبت لأنابيلا تبلغها رسالته ، وتطلب منها التعقل ، وتؤكد لها حبه ، وتذكرها بالأيام السعيدة القليلة التى قضتها معه . ولم يجد الخطاب أذناً صاغية ، فاقتحم بايرون نفسه الميدان ، وحاول جهده أن يثنيها عن قرارها : تارة بالاستعطاف ، وتارة بالتهديد . ولكن أسرة ميلبانكى ، وعلى رأسها أنابيلا ، وقفوا ثابتين ، ولم تزحزحهم هذه المحاولات عن قرار الانفصال .

وتطايرت الإشاعات ، وتهامس الناس بحقيقة دوافع هذا الانفصال ، وتردد اسم أوجستا على كل لسان ، وأنذر الجو بفضيحة تقترب ، ولكن أسرة ميلبانكى أظهرت نبلا عظيما : فلم يتحدث أفرادها بشىء ، وطلبوا الانفصال بدعوى القسوة فى المعاملة فقط . وظن بايرون أنه فى مأمن ، فرفض الموافقة على الانفصال ، فكتبت أنابيلا تقريراً سريا عن الأسباب الحقيقية التى تدفعها إلى هذه الخطوة الحكيمة ، وأعطته محاميها ، ليعرضه على الزوج ، وهددت بتقديمه إلى المحكمة إذا صمم على الرفض . وكانت نتيجة التقرير أن تخاذل بايرون ، ووافق فى الحال . ولم يعرف الناس ما فى هذه الوثيقة من أمور أو اتهامات ، وبقيت محتوياتها سراً غامضاً حتى أعلنه حفيد بايرون بعد وفاة الشاعر بأربعين عاما أو أكثر .

وعلى الرغم من احتياط آل ميلبانكى وتكتمهم الشديد ، تطايرت الأقوال ، وضج المجتمع غاضباً ثائراً ، وجرفت الفضيحة ما اعترض طريقها ، وساهمت كارولين لامب فى إشعال النيران بترديد تصريحاته السابقة عن العلائق المحرمة ، وبإعلان الخطابات التى أشار فيها إلى الموضوع . وبدأ نجمه فى الأفول سريعاً ،

وهرب الناس منه ، وأغلقت أبواب الدور فى وجهه ، وامتنعت الطبقة الراقية عن دعوته إلى حفلاتها ، أو مصافحته فى الطرقات .
وأرادت ليدى جيرسى أن تنقذه ، وتقف أمام تيار الرأى العام ، فأقامت حفلة كبيرة ودعت بايرون وأوجستا إليها ، فما كاد الأخوان يدخلان البهو ، حتى انصرف جميع المدعوين ، فدخل حجرة أخرى ، فزايلها الناس فى الحال . واضطر معبود الجماهير السابق أن ينتحى ركناً بعيداً يرقب منه ثورة هذه الجماهير عليه فى غضب ومهانة ؛ ووقف فى هذا المكان يعقد ذراعيه على صدره كتمثال جميل للرعب والخطيئة . وخرج من هذه المحنة بقسوة جديدة ، وجمود مضاعف . وامحى كل أثر فى نفسه لنبل أوطيبة أو إحساس .

عند ما عاد بايرون إلى بيته ، وتهالك على مقعده ، واستعرض حياته إلى هذه اللحظة ، ورأى كيف ارتفع منذ سنوات فجأة إلى سماء الشهرة والعظمة والعبادة ، وكيف سقط فى لحظة من عليائه إلى هاوية العار والمهانة ؛ قرر أن يرد الإساءة إلى المجتمع مضاعفة ، فما دام الناس قد حكموا عليه بالشر ، فليلعب دور الشيطان كما يريدون ، ويذيقهم كأس المرارة كما يتذوقه الآن .

وثار غضبه البايرونى ، فأخرجه عن حدود الحكمة والعقل ، وأكب على أوراقه يكتب مقالا فى تمجيد نابليون ، والتنديد بسياسة البلاد ، ونظم القصائد فى مديح عدو انجلترا . ونشرت إحدى الجرائد مقاله ، بحجة رغبتها فى إطلاع القراء على رأى سياسى لنبيل انجليزى ، وبظهور المقال أصبح بايرون خائناً لوطنه عدواً لبلاده !

ولكن المجتمع لا يهزم بسهولة كما ظن بايرون ، فقد تضاعف غضب الناس ، وتجمعوا فى طريقه إلى مجلس اللوردات ، وأمطروه وابلا من الشتائم والسباب . وفى المجلس رفض الأعضاء مصافحته ، أو تبادل الحديث معه ، وعند الباب انتظرت النساء ليبصقن فى وجهه . وانتهز الدائنون هذه الفرصة ، فتعجلوا الحجز وباعوا أثاث بيته فى مزاد علنى ، وتلفت بايرون حوله فوجد نفسه وحيداً فى بيت خال من الأصدقاء والرياش . وجد نفسه وحيداً فى بلد يموج بالملايين ، فانتوى الرحيل ، وعقد العزم على هجر المجتمع الذى نبذه نبذاً لم يذكر التاريخ له مثيلا من قبل .

* * *

أعد بايرون معدات الرحيل ، وقبل سفره بأسبوع ، اندفع

إلى مغامرة غرامية جديدة بقيت آثارها بعد ذلك سنوات : ففى العهد الأخير دأبت سيدة مجهولة على مراسلته ، وفى بادىء الأمر لم تكتب اسمها فى رسائلها ، وبالتدريج كشفت له عن شخصيتها ، وعن حبها العميق الذى تكنه له . وطاردته هذه السيدة ، وهى كلير كلير مونت ، فى كل مكان ، واقتحمت عليه بيته مرات عدة ، فطردها الخدم شر طردة . وأخيراً أرسلت إليه تقترح أن يسافرا إلى الريف ، ويقضى معها ليلة قبل رحيله . وكان بايرون إذ ذاك وحيداً تعساً شقياً ، ولذلك خضع لاقتراحها ، وسافر مع كلير كلير مونت إلى الريف ، وقضى الليلة التى تطلبها . وعاقتها نفسه بعد ذلك ، فقطع صلته بها ، وساعده على تصرفه أنه لم يكن يحبها ، أو يعجب بها ، وكل ما فى الأمر أنه استجاب ، أمام تهالكها عليه رغبة فى أن يجد بعض العزاء والسلوى .

وفى اليوم السابق لسفره جلس بايرون وحيداً فى بيته ، فتحركت الأفكار فى رأسه والآلام فى قلبه : تذكر الماضى بحلاوته . والحاضر بمرارته . تذكر أنابيلا ، وقد حرم عطفها إلى الأبد ، وابنته آدا التى لم يرها إلا أياما قليلة . وانهار الجبار تحت

وطأة أحزانه ، فاستسلم للبكاء ، وتناول ورقا وقلماً ، وراح يودع زوجته بقصيدة رائعة مطلعها :

« وداعاً . . . إلى الأبد . . . وداعاً . . . . »

« هذا قلبي طوع أمرك ، وإن رفضت الصفح عنى ، »

« فقد كشفت صدرى لعينك ، فرأيت ما يحويه ، »

« وعليه نام رأسك ، وأقفل النعاس عينك ، »

« فبربك كيف أمكن هكذا أن تطعنيه ؟؟! . »

وعند ما أخذ صديقه مور أصول هـذه القطعة ، وجد أن الدموع قد طمست معظم الكلمات .

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٨١٦ خرج طريد المجتمع من بيته عند بزوغ الفجر ، ليهجر وطنه إلى الأبد . وفى هذا الوقت المبكر تجمع الناس أمام منزله ليروا معبودهم السابق ، وهو يغادر البلاد ذليلا محطما ، وبين بسماتهم الساخرة ، وشتائمهم القسية ، ابتعدت العربة بالشاعر الجميل فى رفقة طبيبه « پوليدورى » وخادمه الأمين « فلتشر » . واضطر بايرون أن يسلك فى سفره طريقا طويلا ، فقد رفض الفرنسيون أن يسمحوا له بالمرور فى أراضيهم لآرائه النابليونية ، فاتجه أولاً

إلى دوفر ، ومنها إلى سويسرا عن طريق بلجيكا .

وكان خبر رحيله قد سبقه إلى دوفر ، فاحتشدت الطرقات بالجماهير ، وتخفت السيدات فى زى الخادمات ، ووقفن على باب الفندق ينتظرن انصرافه ، وبين هذه المظاهرات العجيبة سار بايرون إلى السفينة ، رافع الرأس ، شامخ الأنف ، ولكن عند ما تحركت به ، وبدأت أرض الوطن تبتعد ، اغرورقت عيناه بالدموع .

٨

ما كادت انجلترا تختفى عن أنظار بايرون ، حتى تغلب على ضعفه ، وكبت دموعه ، وعادت الابتسامة إلى شفتيه ، ولكنها ابتسامة حزينة تخفى ما يعتمل فى صدره من آلام وأحزان . وحالت الكبرياء دون أن يستسلم للضعف أمام من معه ، فضاق قلبه بما فيه ، ولم يجد وسيلة للخلاص إلا الشعر . واختمرت فى رأسه فكرة الجزء الثانى من « الطفل هارولد » ، فأكب على أوراقه يصف ذلك العهد الجديد ، ويشرح حالته النفسية فى

أبيات رائعة حزينة ، وبدأ القصيدة بمناجاة ابنته آدا ، واختتمها بوداعها .

وفى مدينة بروكسل زار ميدان القتال حيث انهزم بطله نابليون فى معركة ووترلو . وقف وحيدا فى الميدان ينظر ويتأمل، وينعى بطلا ارتفع ثم سقط مثله ، وإن اختلفت طريقة السقوط .

وجال الشاعر شهراً فى بلاد أوربة ، ثم اتجه إلى سويسرا ، ووصل إلى جنيف فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو . وما كاد بايرون يدخل الفندق حتى وجد أن كلير كليرمونت قد سبقته إليه فى رفقة الشاعر الانجليزى « شيلى » وزوجته .

وعقدت الصداقة أواصرها بين الرجلين ، فكلاهما شاعر عظيم قفز ببلاده إلى عهد أدبى جديد ، وكلاهما رفع راية العصيان على تقاليد مجتمعه ، فكان نصيبه النفى والتشريد . وسارت الحياة هادئة فى جنيف : فنى الصباح يسبحان معا فى البحيرة ، أو يجولان فى الجبال . وفى المساء يتناقشان فى السياسة أو يتحدثان فى الشعر والأدب .

وكان شيلى يشبه بايرون فى ميوله السياسية : فهو يحب نابليون ، ويقدس ذكراه ، ويعتقد أن معركة ووترلو قد ذهبت

بكل أمل فى تحرير أوربة من ربقة الاستعباد ؛ ولـكنه كان يختلف عنه فى الأخلاق والإيمان : فهو هادىء الطبع ، حلو الأخلاق ، رقيق المعاملة ، يدخل السلام فى قلوب سامعيه بصوته الخافت ، وحكمه البليغة ، و إيمانه القوى الراسخ .

ووجد بايرون فى هذا الصديق الذى يشبهه ، و يختلف عنه سحراً عميقاً ، فتأثر به إلى حد بعيد ، و بفضله زال تشككه مؤقتا ، واختفت الأشباح التى تطارده ، وأحب الطبيعة الساكنة الهادئة ، فوصفها فى شـعره وصفا رقيقا وديعا ، يختلف كل الاختلاف عن أسلوبه الثائر السابق .

وفى ذات يوم زار الشاعران قصر « شييون » الأثرى ، فأوحت الزيارة لبايرون بقصيدة جديدة هى « سجين شييون » . وفى هذه القصيدة يتحدث السجين عن نفسه و إخوته الذين سجنوا معه فى القصر الموحش الرهيب ، و يموت الإخوة واحداً إثر واحد ، ولا يبقى إلا هو . و بعد جهد كبير يحطم الأغلال عن معصميه ، و يصعد إلى نافذة سجنه ليلقى نظرة إلى العالم الخارجى ، فيرى أمامه جبال سويسرا الشامخة :

« نظرت إليها فوجدتها كما كانت، ولم تغيرها الأيام كما غيرتنى: » .

« فالثلوج الأزلية تحوط قممها ، ومن تحتها تهتز البحيرة فى رقة ، »
« ويجرى الرون فى قوة وفتوة . وسمعت السيول وهى تقفز غاضبة ، »
« لترتطم بالصخور والشجيرات . ومن بعيد وقفت المدينة »
« بأسوارها البيضـاء وقلاعها النـاصعة . »
« رأيت أيضـا جزيرة صـغيرة خضراء »
« لا تزيد مسـاحتها عن أرض سجنى ، »
« وخيـل إلى أنها تبسم لى مرحبـة ، »
« وأنا أطل عليهـا من نافـذة قبـوى . »
« وفى وسط الجزيرة قامت ثلاث شجرات طويلة ، »
« تنمو عليها زهور جميـلة ذات عبير قوى ، »
« وتجرى تحتهـا مياه جـدول رقراق ، »
« وبين آونة وأخرى يداعب النسيم أغصانها ، »
« فتمايل فى تيـه ودلال . »

وهذه القصيدة الطبيعية الهادئة تدل على تأثير صحبة شبلى فى شاعرنا الثائر .

وتجددت علاقته بكاير كليرمونت التى لم يكن قد رآها إلا مرة واحدة قبل سفره من انجلترا ، وكأن الأحزان لم ترفق

قلبه نحو النساء ، فسامها عذاب الاحتقار والإهانة ، ولم ينس أبداً أنها اقتحمت عزلته ، وفرضت نفسها عليه ، وارتمت بين ذراعيه دون حياء أو خجل ، وعند ما علم أنها تنتظر مولوداً منه زاد احتقاره لها ، ولـكنه انتوى أن يربى الطفل ليؤنس وحشته ، ويبدد وحدته ، ثم يتخذه أداة لتعذيب المرأة المستهترة .

وبعد ثلاثة أشهر سافر آل شيلى ، فتألم بايرون لفراقهم ، ولـكنه تنفس الصعداء عند ما رحلت كلير فى صحبتهم ؛ وكتب إلى أوجستا خطاباً يقول فيه :

« لا تؤنبينى ، أيتها العزيزة ، فماذا كان باستطاعتى أن أفعل ؟ امرأة طائشة تصر على ملاحقتى ، بالرغم من قسوتى عليها !! لقد بذلت جهداً عظيما ، حتى أقنعتها بالبعد عنى ، والعودة إلى وطنها ، وثقى أنه لم يكن فى مقدورى أن أتخلص منها أو أتجنبها إذ لا أحبها ، وليس بقلبى متسع لحب جديد ، ولـكننى لم أستطع أن ألعب دور الفيلسوف مع امرأة قطعت ثمانمائة ميل لتجردنى من فلسفتى . »

* * *

عند ما سافر شيلى ، أحس بايرون للمرة الأولى بقسوة الوحدة

ووطأة النفى ، وعادت أشباح الماضى تطارده : تذكر أنابيلا التى حطمته بقسوتها ، وآدا الصغيرة وقد حرمت رعايته ، ثم أوجستا وهى فى معزل عن الناس ، تبكي عارها وخطيئتها . واشتد به الحنين إليها ، فنظم لها قصيدة حارة يقول فى مطلعها :

« وإن ذهبت أيام المجد ، وأفل نجم الحظ ، »
« فقد أبت عينك أن ترى زلات أخ عزيز . »
« ومع أن الأحزان شملتك ، والآلام غمرتك ، »
« فقد أبى قلبك إلا أن يشركنى فى حبه العظيم »

وحركت ذكراها ضميره من مرقده ، وبدأ الصراع مرة أخرى ، وسيطرت العلاقة المحرمة على ذهنه وأفكاره ، فعمد إلى الشعر ، ليخفف أحزانه ، ونظم قصة جديدة عنوانها « مانفريد » . وفى هذه القصة وصف شامل لحياة المؤلف وصراعه وخطيئته : فمانفريد أمير من أمراء الألب نال ثقافة عظيمة ، ولكنه اتصل « باستارتى » ، فظلت الخطيئة الكبرى تعذبه ، فيتعلم فنون السحر ، ويستحضر الأرواح ، لعلها تمنحه التوبة والغفران . وعند ما يصف « أستارتى » للساحر نجد أن المؤلف يصف أخته تماما :

مانفريد : « كانت تشبهنى فى عينيها ، وشعرها ، »
« وتقاسيمها ، ونغمات صوتها ، »
« ولكن فى دعة وهدوء وجمال ؛ »
« لها وحدة أفكارى وآرائى »
« ورغبتى فى تذوق المعرفة الخفية ، »
« ولكنها تفوقنى رقة : تعرف الشفقة ، »
« والابتسام ، والدموع التى لم أسكبها إلا من أجلها . »
« كان لها أخطائى ، أما فضائلها فلم أشاركها فيها ... »
« لقد أحببتها وحطمتها ! ! »

الساحر : « أحطمتها بيدك ؟ »

مانفريد : « لا ... بل قلبى الذى حطم قلبها . »

وقبل أن ينتهى من هذه القصة حل الشتاء ، وهبط السُّحون الإنجليز على سويسرا ، واتجهت إليه العيون فى جمود وسُخرية واحتقار ، فعقد العزم على الرحيل ، وسافر فى شهر نوفمبر إلى البندقية « مدينة القلب السحرية » كما يقول .

* * *

وصل الشاعر إلى البندقية فى نوفمبر عام ١٨١٦ ، فاستأجر

بيتاً جميلاً ، وحط الرحال فيه . وهدأت نفسه بعض الشيء ، وامتلأ قلبه بالسرور لوجوده فى مدينة أحلامه ؛ وظن أن الأفكار التى طاردته فى سويسرا ستنتهى ببدء هذا العهد الجديد. ومضت الأيام الأولى كما يشتهى ، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه وعرف أنه لاسبيل للهرب من نفسه ؛ فهى تتبعه أينما ذهب .ومن أجل أن ينسى ، أقبل على كتابة الشعر ، فأتم قصيدة «مانفريد».

وعند ما فرغ منها اشتد حنينه إلى بلاده ، وازدادت رغبته فى تذوق المجد والسعادة التى عرفها هناك ، فكتب الخطابات إلى أصدقائه فى انجلترا ، ولكن البعد كان قد أنساهم معبودهم القديم ، فأبطأوا فى الرد . وثار غضبه على قلبه الذى ما زال يتعلق ببلاد نبذته ، وبأصدقاء نسوه ، فأرسل إلى ناشره « مرى » خطاباً يقول فيه :

« — منذ شهر مايو لم تسلم رسالة من انجلترا ، على الرغم من أننى كتبت كثيراً فى قلق ولهفة ، وهذا يكشف لى عن حقيقة من يسمون أنفسهم أصدقائى . وأحمد الله ، أننى كلما غبت أكثر قل السبب الذى يدعونى إلى الأسف على الوطن ، أو الحزن على فراق من يعيشون فيه . قل لهوبهاوس : إننى لن

أغفر له أو لأى شخص آخر ، إهماله وقسوته ، بالصمت فى وقت أتمنى فيه أن أسمع من أصدقائى . »

وظل الأصدقاء على صمتهم ، فتضاعفت ثورته ، وأرسل ثانية إلى مرى يقول :

« — أرجو ألا يفكروا فى تحنيطى بعد وفاتى ودفنى فى بلادكم ؛ فلن تجد عظامى الراحة فى قبر انجليزى ، ولا أريد أن يختلط ترابى بأرض هذا البلد . ولو خيل إلى أنه قد يبلغ الانحطاط بأصدقائى أن يفعلوا هذا ، لأصابنى الجنون على فراش الموت ، فلن أقبل حتى أن أطعم ديدانكم بجثتى . »

وهذه الخطابات الغاضبة الشديدة تكشف عما يخفيه صدره من حنين إلى بلاده ، وتعلق بها . وقرر بايرون أن يتغلب على أفكاره ، وازدادت النيران تأججاً واشتعالاً . وبدأ صراع قوى مخيف بينه وبين قلبه وإحساساته ، وعهد الصراع أخطر عهوده ، ولذلك انغمس فى الملاذ بجنون لا مثيل له ، وأمعن فى الاستهتار والمجون ، وهجر المجتمعات الراقية ، وجمع حوله حثالة الناس . وبعد أن كان مطمح الأنظار من أشراف الإنجليز انتمى إلى فئة تختلف عنهم تماماً ، وخص بالحب امرأتين على قسط عظيم

من الجهل والانحطاط الخلقي ، وسره أن يرى حرباً ضروساً تشب بينهما في سبيل الغلبة والنصر ؛ وامتدت مشاجرات المرأتين إلى الطرقات ، فتفرج أهل البندقية جميعاً بمناظر مخجلة . وخص بالصداقة رجالاً فقدوا مظاهر الرجولة وسيرتها منذ أمد بعيد .

وكان لعهد الانحطاط هذا تأثير على شكله أيضاً : فبدا كأنه في الأربعين وهو لم يبلغ الثلاثين ، وذبل وجهه ، وتجعد جبينه ، واكتنز جسمه باللحم والشحم ففقد رشاقته القديمة ، وخشن صوته وذهبت نغماته الموسيقية الرخيمة ، وتساقط شعره ، ودب المشيب في عارضيه ، وارتسمت على فمه صورة الاستهتار والشهوة والمجون . وإن تغير شكل بايرون إلى هذا الحد من القبح لأكبر دليل على يأسه العظيم ، لأن جماله كان أبداً أهم شيء في حياته .

ولم يكن بايرون راضياً عن حاله أو أسلوب حياته ؛ بل كان حزيناً متألماً مما وصل إليه ؛ فأغرق أسفه في كئوس الشراب ، وأقبل على الخمر يغترف منها ، ففاق أكبر سكيري مجتمعه العربيد ، وأصابت الخمر كبده فتورمت ، وسببت له آلاماً لا تطاق ، وجعل يقضي لياليه يتقلب على فراشه متأوهاً ، وحرمه المرض لذة النوم ، فتوترت أعصابه ، وتضاعفت خشونته وقسوته .

وفى خلال هذا العهد وصل الشاعر شيلى إلى البندقية ، ليسلم إليه « أليجرا » الصغيرة ابنته من كلير كليرمونت . وكانت الطفلة تبلغ عاماً واحداً من عمرها ، فتقبلها مسروراً ، وعاشت فى بيته بعض الوقت ، ولكن زوجة القنصل الإنجليزى فى البندقية تألمت للبيئة الخطيرة التى تحوطها ، فضمتها إلى أحضانها .

وشاء الله أن ينقذ بايرون من الانحطاط الذى تمرغ فيه ، فأصابته حمى الملاريا ، وأشرف على الموت ، ولما شفى قرر أن يغير أسلوب حياته ، فطرد خليلتيه ، وقطع صلته بأصدقائه ، وطرق بيوت الأشراف مرة أخرى ، واندمج فى المجتمع الذى يناسب مركزه وثقافته . وقابل يوماً سيدة إيطالية صغيرة ، وهى « تريزا » سليلة آل جامبا ، وزوجة كونت جيسيولى الهرم ، فخلبت لبه ، واستطاعت أن تروضه ، وتعيد السلام إلى قلبه وذهنه ؛ فلما سافرت بعد ذلك إلى « راڤينا » نفض غبار البندقية عن قدميه ، ولحق بها .

وفى ديسمبر عام ١٨١٩ هجر « مدينة قلبه السحرية » وكتب إلى قنصلها الإنجليزى يقول عنه :

— أكره هذا البلد وكل ما ينتمى إليه !

٩

سافر بايرون إلى « راڤينا» ، ليلحق بحبيبته تريزا چيسيولى وبذلك أنقذ نفسه من عهد الانحطاط الذى غرق فيه . وصحب معه ابنته أليجرا ، لتبدد سأمه ، وتؤنس وحشته .

وفى سكون الفندق الأنيق الذى نزل فيه ثاب إليه عقله ، واختلى بنفسه يناقشها الحساب : استعرض الأعوام الأخيرة ، فوجدها ذهبت هباء فى أعمال لا يحبها ولا يشتهيها ، ولكنه يندفع إليها رغبة فى النسيان والسلوى . وتساءل : أيقضى ما تبقى له من العمر هكذا ؟ حقيقة هو يقرض الشعر ، ويقدم لبلاده أدباً رائعاً سيبقى لها ذخراً على ممر القرون والأجيال ، ولكن نفسه قلقة حائرة ، لا تجد فيما ينتجه راحة أو سلاماً . وأحس رغبة شديدة فى أن يرضى تلك النفس ، ويشعرها بالحياة ، وأن يثبت للعالم قدرته على جلائل الأعمال ، ويقدم لوطنه صفحة جديدة نبيلة ، تمحو ما سبقها من صفحات سوداء . وتذكر أيام طفولته عند ما كان يحلم بشهرة تختلف عن شهرته الآن ، وبمجد فى عالم الأعمال لا فى عالم البيان .

واهتدى إلى نفسه الحقة أخيراً ، فاستكان قلبه ، وهدأت ثورته ، وظهرت فيه ناحية جديدة طيبة ، وهى ناحية الخيرات والإحسان ، فوقف مالاً على عجائز الإيطاليين وفقرائهم ، وربط معاشاً للملاجىء ودور اليتامى ، ومد الأديرة والكنائس بالعطايا الثمينة . وانتشرت أخبار أعماله الخيرية ، فأحبه الناس ، وتجمعوا حوله ، وتطلعوا إليه فى احترام وتبجيل .

وكانت أوربة فى ذلك العهد تعانى أزمة سياسية خطيرة ، عقب الحلف المقدس الذى ذهب بآمال عدة فى الحرية ، فثارت اسپانيا ، وحصلت على دستور طيب لبلادها . وتسربت روح الثورة إلى إيطاليا ، فقام الناس بحركة مماثلة ، ونادوا بسقوط السلطة البابوية ، ونجح أهل ناپولى فى أن ينتزعوا من ملكهم دستوراً عادلاً ؛ وتحركت بولونا ورافيند تبغيان الوصول إلى نفس النتيجة .

ووقف بايرون فرحا يرقب صراع من حوله فى سبيل الحرية ، وانتوى أن يخدم قضيتها ، ويساعد إيطاليا على تحرير نفسها ، وأقسم أن يضحى بكل مرتخص وغالٍ فى سبيل غرضه الأسمى ، وتطلع إلى عمل كبير يشبع نفسه . ويرضى مبادئه .

وكانت الظروف ممهدة : فالشعب بأجمعه يتأجج وطنية ، والأطفال يهتفون للحرية فى الطرقات ، والأمريكيون يتمرنون علنا على فنون الحرب والقتال ، والأهالى يجمعون الأسلحة والذخيرة ، ويخفونها استعداداً لليوم المنتظر .

وتدخل الشاعر فى سياسة البلاد ، فانضوى تحت لواء حزب الكاربونارى ، وخدمه بحماسة وإيمان ، ومده بالأموال ، فانتخبوه فى رافينا رئيساً للشعبة الأمريكية من «جماعة إخوان حرية إيطاليا» . ووجد أن إقامته فى الفندق تعرقل تصرفاته ، وتضعه تحت رقابة الحكومة ؛ ولذلك عزم على الانتقال ، واستأجر طبقة من قصر جيسيولى ، وحط الرحال فيه . وأصبح الجو الجديد الذى يحوطه لا يناسب وجود طفلة صغيرة ، فأرسل أليجرا إلى دير خارج المدينة ، وأمر أن تعمد طبقاً لمبادىء الكاثوليكية ، وتركها هناك فى رعاية الراهبات .

وانقلب مسكنه الجديد إلى مخزن كبير الذخيرة ؛ وأرسل إلى لندن يطلب من أصدقائه أن يمدوه بالأسلحة والبارود ؛ ولم يمض وقت طويل حتى امتلأت الحجرات بالبنادق والطلقات . وحالت جنسيته الانجليزية بينه وبين تدخل السلطات ، فوقف

أولو الأمر يرقبونه من بعيد فى غيظ وحنق ، وجعلوا يحوكون الدسائس لقتله والتخلص منه ؛ ومع ذلك لم يأبه للخطر الذى يهدده ، ووقف ثابتاً يعمل فى جرأة ، ويمهد للوطنيين سبيل الاجتماع سرا تحت سقفه ، ويمد المتآمرين بالمال .

وترجم البعض ديوان « الطفل هارولد » إلى الإيطالية ، وحفظ الناس ما يتناول بلادهم وتحريرها ، فألهبت الأشعار نيران الوطنية فى قلوبهم، ورددوها صلوات مقدسة تبارك الحركة التى يقومون بها .

ومع هذه البطولة العظيمة ، والأعمال المجيدة ، ظل قلبه وحيداً حزيناً ، ففى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير عام ١٨٢١ بلغ بايرون الثالثة والثلاثين من عمره ؛ وداخله الحزن فى ذلك اليوم ، فكتب فى يومياته يقول :

« — فى الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل أبلغ الثالثة والثلاثين من عمرى ! ! وهأنذا أذهب الى فراشى . بقلب مثقل بالحزن لأننى عشت كل هذه الأعوام دون فائدة . . . ساعة القصر تدق الآن منتصف الليل ، وأنا فى الثالثة والثلاثين ! !

ولـكنى لا آسف على ما فعلت قدر أسفى على ما كنت أستطيع أن أفعله . »

ثم تلا ذلك بيتان من الشعر :

« فى طريق الحياة القذر ، تعثرت إلى الثالثة والثلاثين ، »

« ترى ماذا تركته لى كل هذه الأعوام ؟ ؟ »

« لا شىء غـــــير ثلاثة وثلاثين ! ! »

ولـكنه لم يترك لأحزانه سبيلا تظهر به على وجهه ، وأخفاها حذراً بين طيات قلبه ، وظلت الابتسامة على شفتيه ، تبعث الثقة فى نفوس المجاهدين ، وتشجعهم على مواجهـة الخطر ، وتعلمهم التضحية فى سبيل التحرير .

وأبى الحظ أن يترك بايرون فى سعادته ، فتدخل — وتلك عادته — ليحطم آماله وأحلامه : ففى شهر مارس من ذلك العام هجمت القوات النمساوية ، وقمعت الحركة الإيطالية ، وسحب ملك نابولى الدستور الذى سبق أن منحه لشعبه ، وتفرقت الجمعيات الوطنية ، وتخلى أهل رافينا عن جهادهم ، وقبض الحرس البابوى على المتآمرين ، فخرج الشاعر من ميدان الأمانى مخذولا ، فانتوى أن يهجر رافينا إلى الأبد .

لم يسكت بايرون عن قرض الشعر خلال المرحلة المفعمة بالمخاطر والأعمال ، فنظم فى ذلك العهد قصة « دون جوان » التى تختلف كل الاختلاف عن الأسطورة الأسبانية القديمة . ورسم فيها صورة واسعة لحياته ورحلاته و إحساساته ، وفى نفس الوقت هجا حياة الانجليز إذ ذاك ، ونقد الطبقة الحاكمة .

وفى « دون جوان » تتغير فلسفته القديمة فى الحياة ، نتيجة إقباله على قراءة ڤولتير ، وتشبعه بمبادئه ، ويزول عهد بايرون الحزين الغامض، وتسود شعره السخرية المستترة وراء قناع كثيف من النقد المرير .

ولم يكتف بهذه القصيدة . بل كتب قصصاً أخرى مستقاة من الإنجيل ، ولكنها مصبوغة بصبغته ، ومحورة وفق أفكاره وإحساساته . وأهم هذه القصص « قابيل » التى وضع فيها احتجاجه الحار على الأقدار ، وخلق الرذيلة فى الإنسان . وتبدأ القصة بعد طرد آدم من الجنة ، حيث يعيش مع أولاده الذين يعبدون الله جميعاً ، ولكن قابيل يأبى أن يشاركهم فى عبادتهم غاضباً على من قدر الخطيئة على أبيه ، وينكر أن يقاسى عقاب

جريمة لم يقترفها . وعلى لسان هذا الثائر يضع المؤلف احتجاجه الشخصى ، ويفسر شكوك نفسه ، ويفصح عن غضبه على الأقدار والناس :

قابيل : « أهذه هى الحياة ؟ أعمل وأكدّ دون أمل ؟ »
« أأشقى لأن أبى لم يحتفظ بمكانه فى الجنة ؟ ولكن »
« ما ذنبى ؟ لم أكن ولدت عند ما فعل ذلك ، ولست »
« أحب العالم الذى أعيش فيه . ولماذا استسلم للحية ، »
« وخُدع بالمرأة ؟ وما دام قد استسلم ، فأى خير يرجى »
« من تعذيبه ؟ لقد غُرست الشجرة ، فلماذا لا تكون له ؟ »
« وإن لم تكن له ، فلماذا وضع بجوارها . وقد ظهرت »
« لعينيه أبهى وأينع ما حولها ؟ إجابة واحدة لكل هذه »
« الأسئلة : « هذه إرادته ، وهو طيب رحيم ، ومن »
« أدرانى أنه كذلك ؟ ألأنه قوى جبار يكون أيضاً »
« طيباً رحيما ؟ إننى أحكم بالثمار ، وهى مرة المذاق »
« وعلى أن أقتات بها من أجل غلطة سواى . »

وفى مكان آخر من الرواية تظهر « عادة » أخت قابيل

وزوجته ، وفى حوارها مع الشيطان « لوسيفار » يدافع بايرون عن علاقته بأخته :

عادة : « قابيل . . . لا تذهب مع هذا الروح ، واحتمل »
« ما نحتمله ، وأحببنى فأنا أحبك »

لوسيفار: « أتحبينه أكثر من أمك وأبيك ؟ »

عادة : « نعم . . . وهل فى ذلك خطيئة أيضاً ؟ »

لوسيفار: « لا . . . ليس الآن ، ولكنها ستكون »
« خطيئة فى عهد أولادك »

عادة : « ماذا تقول ؟ ! ألن يستطيع ابنى أن »
« يحب أخته أينوح ؟ »

لوسيفار: « سيحبها ، ولكن ليس كما تحبين قابيل »

عادة : « أواه يا إلهى . . . لا يتحابان ، ويتحبان »
« ما يتطلبه الحب منهم ؟ ألم يرضع من هذا »
« الثدى ؟ أو لم يولد أبوها من نفس الرحم »
« التى تم بها خلقى ، وفى نفس الساعة التى »
« ولدت فيها ؟ ألا نتحاب نحن الاثنين ؟ »

• وعندما يقتل قابيل أخاه هبيل ، يأتى ملك ليصمه فيخضع

للعقاب . وهنا يدافع بايرون عن نفسه و يهجم على الأقدار التى حكمت عليه بالخطيئة :

قابيل : « ولدت بعد الطرد بزمن قصير ، ولم يكن عقل »
« أمى من الحية قد هدأ ، ولا حزن أبى على الجنة قد »
« ذهب . أما أنا فما سعيت إلى الحياة أو صنعت نفسى ! »

وعندما ظهرت القصيدة ، وطبعت فى انجلترا حمل النـاس عليها حملة شديدة من الناحية الدينية ، ولكن بايرون قابل الثورة فى شجاعة وتحد كعادته .

* * *

حزن بايرون على إخفاق الثورة الإيطالية ، فقد كان يعقد عليها الآمال ، و يرجو أن تتيح له فرصة إرضاء نفسه القلقة ، وفرصة خدمة مبادئه الحرة . ولم يعد فى رافينا ما يدعوه إلى البقاء بعد أن تحطمت آماله ، ونفيت أسرة حبيبته تريزا من البلد ، فانتوى الرحيل ، وسمعت كلير كليرمونت أنه وضع ابنتها أليجرا فى الدير ، فغضبت عليه واحتجت ، لما عرف عن راهباته من قسوة وخشونة . وطلبت أن تزورها ، فرفض أن يسمح لها بالزيارة ، فأرسلت من يستطلع حالتها ، فجاءتها الأخبار بما حقق

ظنونها الأولى . وتوالت الخطابات على بايرون ، يطلب فيها شيلى إخراج أليجرا من الدير ، وعند ما علم بقرب رحيله من رافينا ، استحلفه أن يحضرها معه إلى بيزا ، ولكن بايرون لم يرد على الرسائل ، ولم يعرها أقل اهتمام ، فقد حانت الفرصة لتعذيب المرأة التى يكرهها . ونسى أنه بتعذيبه كلير إنما يعذب الصغيرة أضعافا ؛ ولما إلى وصل بيزا كان شيلى فى انتظاره ، فوجد أنه قد أحضر معه ثلاث أوزات لتؤنس وحشته ، ولكنه لم يحضر أليجرا الصغيرة !

* * *

لم يشعر بايرون بالسعادة فى بيزا ، فهناك جالية انجليزية كبيرة ترقب حركاته وسكناته ، فى احتقار وسخرية ؛ وطبيعى أن يتملكه القلق بين أعدائه وكارهيه . وضيقت كلير كليرمونت عليه الخناق عند ما علمت بوصوله وقد ترك ابنتها خلفه ، وتحرك الوحش الذى يكمن فى صدر الأم إذ أحست خطراً يتهدد وليدتها ، فكاتبته ثانية بغضب وحنق ، وكالت له الإهانات بغير حساب ، ولما لم تجد أذنا صاغية غيرت أسلوب رسائلها ، وعمدت إلى اللين والاستعطاف ، وجعلت ترجوه فى خضوع وذلة أن يسمح لها برؤية ابنتها ! وقالت فى رسالة إليه :

— « لا أستطيع مقاومة شعور باطنى يحـدثنى بأنى لن أراها ثانية ، فأستعطفك أن تحطم هذا الشعور، بأن تسمح لى برؤيتها . »

لم يجبها ، ولم يلب رجاءها ، فتدخل شيلى ولكنه لم يوفق إلى إقناعه ؛ وعندما رأى عينى بايرون تشعان بالسرور ، لآلام الأم المسكينة ، كف عن محاولته ، ونصح لكلير بالصمت . وأخيراً وصلت الأخبار بموت أليجرا إثر إصابتها بحمى خطيرة انتشرت أخيراً فى الدير .

وحزن الشاعر على ابنته ، فلم يكن يظن أن عناده سيقضى على الصغيرة ، وأحس بالندم على قسوته وأراد أن يكفر عن زلته ، فكلف رساماً شهيراً أن يرسم لها صورة كبيرة ، وأمر بتحنيط جثمانها ، وإرساله إلى انجلترا ليدفن فى مقبرة كنيسة هارو . وسأل كلير الموافقة فأبت أن تبدى له رأيا ، وتركته يفعل مايشاء ، وطلبت فقط أن يعطيها خصلة من شعر ابنتها وصورة صغيرة لها ؛ وفى هذه المرة أجاب الطلبين من فوره .

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو عام ١٨٢٣ شحنت جثة أليجرا ، وأرسلت فى سفينة إلى إنجلترا ، ولكنها

لم تدفن فى المكان الذى اختاره لها ؛ لأن ولاة الأمور رفضوا أن تضم أرجاء المقبرة رفات طفلة غير شرعية ، وانتهى الأمر بأن حفر لها قبر صغير خارج حدود المكان ، ودفنت فيه دون ضريح أو شاهد يحمل اسمها ، ولكن الطبيعة عطفت على أليجرا فنمت بجوار قبرها شجرة جميلة ما زالت قائمة إلى اليوم ، تشير إلى مثواها المجهول .

وعاقب الله بايرون فحرمه رؤية ابنته الشرعية آدا التى كان يفخر بها ، ويناجيها فى أشعاره ، إذ نشأت وترعرعت دون أن تسمع باسم والدها إجابة لرغبات أسرة أمها !

وانتهت أيام پيزا بكارثة فادحة هى وفاة شيلى غرقاً ، وبذلك فقد شاعرنا آخر صديق له . وعندما أحرقت الجثة تنفيذا لوصية الراحل ، طلب بايرون أن يعطى الجمجمة ليحتفظ بها تذكارا لصديقه ، ولكن زوجة الميت وأصدقاءه رفضوا إجابة هذا الطلب لأنه سبق أن جلب من اليونان جمجمة استعملها قدحاً للخمر فيما بعد ، وخشوا أن يحل برأس شيلى ما حل بسابقه !

***

نزل بايرون بمدينة جنوا فى شهر سبتمبر عام ١٨٢٢ ، وعاش

فيها زهاء عام ، وفى خلال هذه المدة بلغ حنينه إلى وطنه أقصاه ، وتحرق شوقاً إلى رؤية بلاده وأسرته ، وتمنى لو استطاع العودة إلى زوجته وابنته ؛ فلما لم تتحقق رغائبه سئم الحياة فى إيطاليا ، وفكر فى هجرها إلى وطن جديد . واتجهت أنظاره ثانية إلى اليونان التى تحارب فى سبيل استقلالها ، وعاودته الرغبة فى مساعدة هذه البلاد العزيزة ، وأراد أن يخدم قضية الحرية من جديد .

وكانت اليونان إذ ذاك فى حرب طاحنة مع مستعمريها الأتراك ، وعلى الرغم من ضعف اليونانيين وقلة استعدادهم ، توالت انتصاراتهم على أعدائهم الأقوياء ، مما يبشر بالفوز والنجاح . ولكن الحالة السياسية انقلبت فجأة إلى فوضى خطيرة . فلم يكن هناك قائد ممتاز ، يستطيع أن يجمع شمل الجيوش ، ويوجهها توجيها صحيحاً ، ولم يكن هنك حزب سياسى يعمل فى سبيل المصلحة الوطنية فقط . ولجأ اليونانيون إلى انجلترا ، ينشدون مساعدتها فى محنتهم ، فسافر مندوب منهم إلى لندن ، ليدافع عن قضية بلاده ، فتشكلت لجنة انجليزية لتساعده فى مهمته .

وانتوى بايرون أن يلبى نداء الحرية ، وأعلن حربها أولا

بقلمه ، فأضاف إلى « دون جوان » فصلا جديدا يذهب فيه البطل إلى حصن إسماعيل ، خلال الحملة التركية الروسية ، فيكشف عن حقارة حياة القواد الذين يتخذون التقتيل مهنة دائمة ، ويسخر من الرجال الذين يحاربون فقط ، من أجل الأوسمة والشهرة .

وكانت سخرية بايرون لاذعة مريرة ؛ تردد صداها فى جميع أنحاء أوربة ، وكانت القصيدة برداً وسلاما على قلوب الملايين من الرجال الذين قاتلوا وعذبوا من أجل أنانية رؤسائهم ؛ وترجمت القطعة إلى كل اللغات ، وحفظها الناس فى مختلف البلاد ؛ واقتطف أصدقاء اليونان من « الطفل هارولد » الفقرات التى تمجد هذه البلاد ، وطبعوها ونشروها فى كل مكان ، فتهيأت الأذهان لقضيتها ، وتفتحت القلوب لمساعدتها ، وانتشالها من محنتها .

وعقد بايرون عزمه على السفر إلى اليونان ، ليمدها بأمواله ، ويقاتل أعداءها بنفسه ، وكتب مقطوعة يقول فيها :

« لقد استيقظ الموتى ، فهل أنام ؟ »
« وثار العالم على ظالمه ، فهل أخضع ؟ »

« وطاب الزرع ، فهل أتوانى عن الحصاد ؟ »
« لن أتردد ، فالشوكة فى مرقدى ، »
« ونداء الحرب فى أذنى ، وصداها فى قلبى .. »

وساعد بايرون على تحقيق عزمه أن كان فى ذلك العهد من الأغنياء ؛ فقد باع ضيعتيه نيوستيد وروشديل بمبالغ طائلة ، ونال عن طريق زوجته نصف الثروة الضخمة التى آلت إليها أخيراً ، وصار إيراده من كتبه سبعة آلاف من الجنيهات كل عام .

وأعد لسفره سفينة ، جهزها بالمؤن والذخيرة ، وصحب معه صديقه بيترو جامبا شقيق تريزا ، وكذلك خادمه فلتشر ، وطبيبه الدكتور برونو ؛ وأبحر الجميع إلى اليونان ، بعد أن أرسل إلى أصدقائه بانجلترا يقول :

« سترون — إذا امتد بى العمر عشر سنوات أخر — أننى لم أنته بعد ... لا أقصد فى الأدب ، فما خلقت لهذا اللون . ولكنكم سترون منى عملا يدهش الفلاسفة فى مختلف العصور ! »

١٠

فى اليوم السادس عشر من شهر يوليه عام ١٨٢٣ بدأ بايرون رحلته البحرية ، فما تحركت السفينة حتى وقف على ظهرها يرقب اختفاء الشاطىء الأوربى فى بسمة حزينة ، فقد كان قلبه يحدثه أن هذه الرحلة هى آخر رحلاته فى الحياة . وفى خلال الأيام الأخيرة ظل يؤكد لأصدقائه قائلا :

— « لن أعود أبداً من اليونان . »

وتملكه هذا الشعور وهو يرقب ابتعاد الشاطىء ، فنظر إلى بيترو جامبا فى أسى وقال :

— « ترى أين أكون فى مثل هذا اليوم من العام القادم؟ »

وقد وجد فى مذكرات بيترو :

— « فى نفس اليوم ، ونفس الشهر من العام التالى ، حملناه إلى مقبرة أجداده ! »

***

وعلى ظهر السفينة تغيرت أخلاق بايرون تماما : كان أبداً فرحاً مسروراً ، لا يغضب ولا يثور ؛ يعطف على الكل ، ويعنى

بمن معه ، ويواسى الحزين ويخدم المريض . وانتشر روحه الهادىء الجميل فى أنحاء السفينة ، فملأ قلوب من عليها بالشجاعة والتفاؤل ، والأمل . وقرر أن يقطع كل صلة له بالنساء ، فلقد كن أبداً سبب سقوطه ونكباته ، وحلن دائماً بينه وبين الحياة التى يتمناها . وقرر أيضاً ألا يكتب شعراً ، ليثبت للعالم قدرته على الأعمال لا الكلمات ؛ وانتوى أن يلعب دورا فى عالم البطولة والتضحية ، يرفع اسمه إلى سماء المجد والفخار ؛ ومن يدرى ؟ لعل أنابيلا تعطف إذ ذاك ، وتقبل العودة إليه ، فيعيش ما تبقى من العمر بين أسرته وفى بلاده .

ومن أجل أن يفيد قضية اليونان ، حمل معه عشرة آلاف دولار اسبانى ، وخمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات الإنجليزية ، وصكوكا تضع تحت إمرته أربعين ألفاً أخرى . وكرس كل هذا المال ، لخدمة الحرية واستعادة استقلال اليونان .

وفى اليوم الثانى من شهر أغسطس لاح شاطىء سيفالونيا ، فأشار إليه قائلا :

ـ «لست أدرى لماذا أشعر الآن ، أن السنوات الاثنتى عشرة التى مضت منذ زيارتى هذه البلاد قد انزاح حملها من فوق كتفى» .

كانت قصائد بايرون عن اليونان وحريتها ، قد سبقته إليها ، وانتشر خبر قدومه لمعاونتها ، فاحتشدت الجماهير فى ميناء أرجوستولى ، لاستقبال البطل . ونزل الشاعر من السفينة ، فرأى جموعاً زاخرة ، من النساء والرجال والأطفال يهتفون باسمه ، ويحيونه فى حماسة وحمية ؛ فوقف فى مكانه لا يقوى على الحركة واغرورقت عيناه بالدموع ، فما عرف التمجيد والاحترام منذ زمن بعيد !

وعقب نزوله وصلته رسالة من « ماركو بوزاريس » قائد جبهة « أناتوكيلون » ، يناشده الإسراع إلى مساعدته ، لوقف تقدم الأتراك ، ولكن لم تمض ساعات قلائل ، حتى جاءت الأخبار باستشهاد الزعيم فى ساحة القتال ؛ وطلبت منه الحكومة اليونانية أن يتمهل ، ولا ينضم إلى فريق معين حتى تصله إرشادات جديدة ؛ ولذلك استأجر بيتاً فى ميتا كساسا ، وعاش فيه مع صديقه بيترو ، وطبيبه برونو ، وخادمه فلتشر ، ينتظرون وصول الإرشادات .

وجاءت الأوامر بسفره إلى « ميسولونجى » فركب فى السفينة مرة ثانية ، وأبحر إليها ، فوصلها فى اليوم الخامس من شهر يناير

عام ١٨٢٤ ، بعد أن استهدف لعاصفة هوجاء ، واشتبك مع الأتراك فى قتال .

وفى ميسولونجى استقبله الناس بحفاوة لا مثيل لها ، واصطفت الجيوش لتقدم له تحية عسكرية ، واحتشدت الجماهير تهتف باسمه ، وتواثبت القلوب فرحة بقدومه ، وأشرقت الوجوه سعيدة برؤيته .

و بين مظاهر التمجيد والتبجيل نزل بايرون إلى المستقبلين فى حلة عسكرية استعارها من أحد الضباط ؛ ووطئت أقدامه البلاد التى مات فيها .

***

كانت حياة بايرون فى ميسولونجى سلسلة من العذاب النفسى والجسدى ، فسجلت صحيفة تملأ القلوب بالحزن والرثاء : فالبلدة صغيرة رطبة ، لا ترتفع كثيراً عن مستوى البحر ؛ تحيط بها المستنقعات الراكدة ، وتنتابها العواصف والرياح ، وتتساقط فيها أمطار غزيرة تقلب الطرقات إلى بحيرات من الوحول ، وتفوح فى جوها رائحة الأسماك والأملاح ، ويكثر فيها الذباب والبعوض نذر الأمراض والحميات .

وعاش بايرون فى بيت صغير يقع فوق رابية تطل على الشاطىء من بعيد ؛ ولم تكن سبل الراحة تتوافر فى ذلك البيت : فالجدران رقيقة ، والسقف مختل ، والنوافذ أضعف من أن تقاوم الرياح ؛ ومع ذلك لم يحزن أو يتألم ، بل عاش فيه سعيداً راضياً .

وما إن استقر به المقام حتى استعرض موقف اليونان فى ذهنه ، فوجد أموراً عدة لا تبشر بالنجاح : فالفوضى تسود الأحزاب السياسية ، والقواد ضعفاء ، لا نفوذ لهم على الرجال ؛ والمدينة تحتشد بجنود مرتزقة من قبائل السوليوت الهمجية ، ومع ذلك لم تدفع الحكومة أجورهم ، فشتد بهم الجوع ، وأصبحوا خطراً على البلاد أكثر من الأعداء .

وقرر بايرون أن يعمل فى الحال ، فأرسل إلى انجلترا يطلب مدداً من الحكومة ؛ وجعل السوليوت تحت إمرته الشخصية ، ودفع لهم متأخر مرتباتهم من ماله الخاص ، وتكفل بنفقات جيشه الجديد ، فبلغ ما دفعه فى يوم واحد خمسين ألفاً من الدولارات .

ولم تكن هناك حركات حربية تبعد تفكير السوليوت عن الثورة والمشاغبة ، فرأى أن يمرنهم على القتال وأساليبه ، وبذلك يشغل أذهانهم ، ويجعل منهم جيشاً منظماً مفيداً . وكرس

صباحه كل يوم لتعليمهم ، وقام نفسه بتمرينهم تحت الأمطار المتساقطة ، و بين الرياح الغاضبة .

ولكن الحكومة الإنجليزية ترددت فى إرسال ما طلبه من الإمدادات ؛ وانتشرت المجاعة فى ميسولونجى ، فقام بتنظيم توزيع الطعام ، وقلل وجباته الشخصية ليطعم غيره ، وعاش على الماء والخبز المجفف فقط ، وكانت النتيجة أن ضعفت صحته ، ونحل جسده ، وتضاءلت مقاومته ، فانهار كيانه ، وعاودته أمراضه القديمة مما عجل منيته .

وضعفت مالية البلاد فى ذلك العهد ، واحتاجت الحكومة إلى مبالغ إضافية ، لتستطيع مواصلة القتال ضد الأتراك ، فأرسل بايرون يطلب من الحكومة الإنجليزية أن تمنح اليونان قرضاً كبيراً تساعدها به على التحرر ؛ ولكن انجلترا ترددت أيضاً ، فوهب لليونان نقوده ، لينقذ الجيوش من مأزقها . ولم يكتف بذلك ، بل كتب الرسائل إلى أصدقائه الإنجليز ، ينشد مساعدتهم ، فقاموا — تلبية لرغبته — بحملة صحفية شديدة ، وطبعوا قصائده التى تتناول الحرية اليونانية ، ونشروها فى كل

مكان ، ليهيئوا الرأى العام ، ويضطروا ولاة الأمور أن يوافقوا على القرض والإمدادات .

***

وجد بايرون أن الأتراك يحتلون حصن « ليبانتو » ، فيعرقلون تقدم الجيوش ، ولذلك عزم على مفاجأة الحصن والاستيلاء عليه . وانتوى أن يقود الحملة بنفسه ، ليلهب شجاعة رجاله ويضمن النجاح . وأعد العدة فى حذر ، وأنفق أموالا طائلة ، ولكنه فوجىء فى اللحظة الأخيرة ، بعصيان جيشه ، وثار السوليوت ، يطلبون تسليم مسجون تركى ، ليمثلوا به ، فلما رفض مطلبهم ، اقتحموا عليه بيته ، وهددوه فى حجرته . ووقف بايرون أمامهم ثابتاً ، وتناول غدارته وواجههم فى شدة وصرامة ، فانسحبوا أمامه خائفين . وهكذا انتصر وحيداً على جيش كبير ، ولكن أمله تحطم فى مهاجمة الحصن ، وطرد الأتراك منه .

وحدث بعد ذلك أن حاصر الأتراك ميسولونجى ، وأصبح السبيل الوحيد للخلاص اختراق الحصار بهجوم ليلى ، فتعهد بايرون الحملة ، وأعد العدة ، وقرر لها اليوم السابق لعيد ميلاده ليحيى .

هذا العيد بنصر عظيم ، ولكن الأتراك تخلوا عن المدينة فجأة ، فخبط مشروعه الجديد .

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير أتم الشاعر عامه السادس والثلاثين ، فجلس بين أصدقائه حزيناً كئيباً ، وتناول ورقاً وقلماً ، ونظم القصيدة الوحيدة التى كتبها فى اليونان ، وقال فيها :

« إن كنت تأسف على زوال الشباب فلم تعيش ؟ »
« هاك أرض الموت الشريف النبيل ، »
« فإلى ميدان الجهاد ، واستشهد فيه »
« وابحث لنفسك عن قبر جندى ، »
« فهو لك أشرف القبور ؛ »
« وتأمل حولك ، واختر لجسدك مثوى ، »
« وارقد لتستريح . »

وفى المساء تضاعف حزنه وتشاؤمه ، فنادى خادمه وسأله أيرغب فى السفر إلى إيطاليا ؟ فأجاب الخادم :

— نعم . . . إذا ذهب مولاى أذهب معه .

وابتسم بايرون فى أسى ، وقال :

— كلا ... لن أعود أبداً من اليونان ، وسيحول الأتراك أو اليونانيون أو الجو دون عودتى !

وكان لا يزال يذكر نبوءة قديمة حدثته بها إحدى المنجمات فى طفولته ، وأكدت له فيها أن العام السابع والثلاثين هو أخطر مراحل حياته !

***

وانتعشت الآمال فى قلبه من جديد عند ما بلغه وصول سفينة إنجليزية تحمل مهندسين وذخيرة ومؤناً . وبدأ المهندسون فى تعليم الرجال شئون السلاح والمدفعية ، ولكن السوليوت ثاروا ثانية ، وقتلوا ضابطاً سويسرياً ، فانتشر الذعر بين المهندسين ، وطلبوا العودة فوراً إلى بلادهم ، فسهل لهم بايرون سبيل الرحيل ، ودفع لهم مرتباتهم ونفقاتهم حتى غادروا البلاد .

وانتشر الطاعون فى المدينة ، ثم حدث زلزال شديد هدم البيوت وقوض المنشآت الحربية ، ومع ذلك سمع بايرون أن الجنود أسروا أربعاً وعشرين امرأة تركية ، وانتووا بيعهن فى أسواق الرقيق ، فخرج بين الطاعون والزلزال ، وأفرج عن الأسيرات ، وأعادهن سالمات إلى بلادهن ، فسجل فى تاريخه

عملا إنسانياً رائعاً يمحو الكثير من زلاته السابقة .

وعلى الرغم من كل هذا ظل بايرون رقيقاً مجاملا : لم تفقده الصدمات شجاعته ، ولم تضعف النكبات أمله فى النصر والحرية وظل كريماً إلى النهاية يبذل ماله بسخاء فى سبيل القضية التى يحارب من أجلها . ولو كان رجل آخر مكانه ، وذاق فى ميسولونجى عذاب الجوع والفشل ، لعاد إلى وطنه ورضى من الغنيمة بالإياب ، ولكن بايرون لم يفعل ذلك ، بل بقى شجاع القلب قوى العزيمة ، يشعل الحماسة بصبره واحتماله ، ويطمئن القلوب بثقته وابتسامه . وبابتعاده عن النساء ظهرت مواطن الحسن فى أخلاقه ، وتعرف الناس حقيقة نفسه وطباعه ، فلقد كانت المرأة أبداً عدواً لدوداً تقلب هذا الملك إلى شيطان مريد .

وفى بعض الأحيان كان الشاعر يضعف تحت وطأة المصائب ، فيأسف على قدومه ؛ وحدث ذات يوم أن تسلم خطاباً من صديقه هوبهاوس يحذره فيه اليونان ، فابتسم بايرون وقال :

— « آه . . . تحذير بعد أوانه . . . كتحذير رجل من امرأته بعد أن يعقد زواجه منها ! »

ولكن مثل هذه اللحظات كانت نادرة وقصيرة ، فيتغلب

عليها ويعود إلى هدوئه وشجاعته ، ويقول لأصدقائه إنه يفضل هذه الحياة وخشونتها وآلامها على حيــاة لندن ومرحها ونسائها وخمرها :

— « إن الفقر بأساء شديدة ، ولكنه يسمو بكثير على غيره من النظم الفانية التى لا تحوى معنىً أو شعوراً ! »

وعرضت عليه الحكومة اليونانية وظيفة المحافظ العام ، ويقولون إن هذا المركز كان الخطوة الأولى فى سبيل العرش ، وليس هذا بغريب على بطل طموح ، ولكن القدر لم يمهله ، ليصل إلى هذا أو ذاك .

***

فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير جلس بايرون فى بيته مع جماعة من الأصدقاء ، فأحس بالعطش ، وأخذ بعض النبيذ ليشربه ، ولكن سحنته انقلبت فجأة ، وقام من مقعده ، فلم يستطع المسير ؛ ووقف فى مكانه لحظة ثم تخبط وسقط فاقد النطق . وحضر الطبيب على عجل ، وأسعفه بالعلاج ، فعاد إليه رشده .

وفى اليوم التالى كان ضعيفاً باهت اللون وشكا ألماً برأسه ،

فأحضروا له علقاً يمتص بعض دمائه ، وعند ما أزيح العلق ظلت الدماء تنزف من جبهته ، وعجز الطبيب عن إيقافها إلا بعد جهد كبير .

و بقي المريض فى فراشه لا يغادره ، حتى وصلته أخبار طيبة تقول : إن أصدقاءه فى لندن نجحوا فى حملتهم ، و بمساعدة أشعاره اشتد ضغط الرأى العام ، فقررت الحكومة منح اليونان قرضاً كبيراً . وتملكه سرور شديد ، فزايل فراشه ، وخرج على ظهر جواده ، للرياضة قليلا ، ولكن الأمطار هطلت فجأة ، فعاد إلى بيته محموماً .

واشتد به المرض ، فقرر الأطباء نقله إلى بلد آخر تتوافر فيه وسائل العلاج ؛ وأبت الطبيعة عليه ذلك ، فظلت الأمطار تنهمر والرياح تعصف ، فلم يستطيعوا نقله .

وفى اليوم الخامس عشر من شهر أبريل انحطت قواه ، ومع ذلك لم يفقد الأمل فى الشفاء ولم يطرؤ على ذهنه أن المنية قد حانت . . . لا لأنه كان يخاف الموت أو يخشاه ، بل لأنه كان يتمنى العودة إلى وطنه ، والعيش فيه مع زوجته وابنته .

واقتضت الحالة أن يفصد ، فعارض خشية النزيف ، وبعد إلحاح خضع لرأى الأطباء ، وقال لهم :

— « إنكم قصّابون ، فخذوا ما يكفيكم من دمائى . . . هيا ، انتهوا من هذه المسألة ! » .

وفى الساعة الرابعة من مساء اليوم التاسع عشر قطع الأطباء كل أمل فى شفائه فجلس فلتشر وبيترو بجواره يبكيان ، فابتسم وقال لهما مداعباً :

— « يا له من منظر جميل ! » .

بيد أنه أحس بدنو الأجل ، فطلب من خادمه فلتشر أن يصغى إلى وصيته ، لينفذها بعد وفاته ؛ ولما حاول الخادم إحضار ورقة وقلم ، منعه بايرون قائلا :

— « كلا بالله عليك . . . سنضيع بذلك وقتاً طويلا . انتبه ، واستمع لأوامرى . »

وسكت برهة ثم استطرد :

— « طفلتى الصغيرة . . . آدا المسكينة . . . لو كنت رأيتها مرة واحدة ! بلغها دعواتى وبركتى ، وكذلك أختى وأولادها ، واذهب إلى زوجتى ، وأخبرها بكل شىء . »

وخانه الصوت ، فظل يتمتم بحديث طويل استغرق عشرين دقيقة ، ولم يفهم الخادم منه كلمة واحدة ؛ وطلب منه أن يعيد الحديث ، فهتف المريض يائساً :

— « فات الوقت ، وضاع كل شيء . . . أحقاً لم تفهم حديثي ؟ »

— لم أفهمه يا مولاى ، فحاول أن تعيده ثانية .

— « كيف يمكنني؟...فات الوقت... وانتهى كل شيء . »

فقال الخادم حزيناً :

— ما هذه إرادتنا ، بل هي إرادة الله .

إذ ذاك جمع بايرون شجاعته ، وحاول الكلام ثانية دون فائدة ، وكل ما سمعه فلتشر و بيترو كلمات متقطعة :

— « زوجتي . . . ابنتي . . . أختي . . . أخبرهن بكل شيء ، فأنت تعرف رغباتي . »

واشتدت آلام رأسه ، فأزاحوا له الرباط عنه ، وأحس المريض بالراحة ، فأجهش بالبكاء ، وقال له بيترو :

— ستتحسن حالتك الآن ، ياسيدي اللورد . . . اذرف من الدمع ما استطعت ، فستشعر بالراحة وتنام .

أجاب بايرون فى ضعف :

— لست أخشى الموت ، ولكن لماذا لم أذهب إلى انجلترا قبل حضورى إلى هذه البلاد ؟

وعاوده الهدوء ، وألقى على من حوله التحية ، وطلب أن ينام ، وأسلم الروح فى منتصف السابعة .

* * *

كانت العاصفة تهب فى هوج ، والأمطار تتساقط فى سيول ، والطرقات تمتلئ بالوحول ، ومع ذلك تجمع الناس ، ينتظرون أنباء بطلهم المحبوب ؛ وما ذاع نعيه حتى هلعت قلوبهم ، وأجهشوا بالبكاء ، وهتف الكل قائلين :

— « مات الرجل العظيم »

وعند الفجر أطلقت المدافع تحية للراحل ، وأغلقت الحكومة دواوينها أياماً ثلاثة ، ووقفت الاحتفالات فى جميع أنحاء اليونان وأقامت الكنائس صلوات على روحه .

* * *

وفى اليوم الأول من شهر يوليه عام ١٨٢٤ وصلت إلى انجلترا السفينة « فلوريدا » ، وهى تحمل جثمان الشاعر الطريد ،

ولم يكن فى استقبالها إلا أخته أوجستا و بعض الأصدقاء . وطلبت الأخت أن تودعه ، ففتح الصندوق ، ولكن وجهه كان قد تغير كثيراً بفعل التحنيط ، فلم تعرفه .

وأرادوا أن يدفنوه فى كنيسة وستمنستر ، ولكن الأساقفة رفضوا إجابة الطلب ، بل رفض القساوسة جميعاً الصلاة عليه ؛ فتقرر أن يدفن فى نيوستيد دون احتفال دينى .

وسئلت أنابيلا عن رغباتها فيما يخص الجنازة ، فلم تبد رأياً ، ورفضت أن تتدخل ، حتى لم ترسل طاقة من الزهور إلى قبره .

وفى اليوم الخامس من شهر يوليه سارت جنازة صغيرة إلى نوتنجهام ، وفى أحد البيوت المطلة على الطريق وقفت امرأتان تنظران من نافذة : فبكت إحداهما ، وهى مارى زوجة شيلى ؛ ونظرت الأخرى فى سخرية وجمود ، وكانت كلير كليرمونت أم أليجرا الصغيرة !

ودفن بايرون فى نيوستيد بجوار أمه ، فجمع القبر بين قلبين تشاحنا وتفرقا فى الحياة .

* * *

و بعد أسابيع قليلة أراد أصدقاؤه تمجيد ذكراه ، فجمعوا

ألف جنيه ليصنعوا تمثالا كبيراً له ، ولكن المثالين الانجليز اعتذروا عن صنعه ، فكلف فنان ألمانى بالعمل ، وصنعه فى بلاده وأرسله إلى انجلترا عام ١٨٢٩ .

وكان الرأى العام ما زال يحقد على بايرون ، فرفضت الهيئات والجمعيات والمتاحف تسلم التمثال ، و بقى مهملا فى مخازن الجمرك عشرة أعوام ! . ولكن هذا التمثال وضع بعد ذلك المهد فى جامعة كامبردج ، وما زال بها إلى اليوم تحوطه أجل آيات الاحترام والتبجيل .

***

١١

تتمـــــة

قد يكون من دواعى التسلية أن نحدث القارىء بمصير مذكرات بايرون ، تلك الوثائق التاريخية الهامة ، التى لو بقيت لأرسلت شعاعاً من الضوء على كل ما غمض من حياته ؛ وأن نقص عليه أيضاً نبذاً عن الشخصيات التى ارتبطت به ، وما تم لهؤلاء بعد هجرته ووفاته .

كتب بايرون مذكراته أثناء وجوده فى إيطاليا ، وأرسلها هدية إلى صديقه توماس مور ، وطلب منه ألا يطبعها أو يقرأها إلا بعد وفاته . وحلت بمور كارثة مالية ، فاضطر إلى بيع المذكرات للناشر مرى مقابل ألف جنيه .

وبقيت المذكرات فى حوزة الناشر حتى وفاة الشاعر ، إذ ذاك حاول مور أن يستردها منه ، فقام نزاع شديد بين الاثنين. ولكن جون كام هوبهاوس رأى فى نشر المذكرات إساءة للراحل ، لما قد يكون فيها من اعترافات خطيرة . وانضمت إليه أوجستا فى هذا الرأى . وقامت مفاوضات طويلة بين الطرفين فى سبيل إحراق المذكرات دون قراءتها أو نشرها . واتفق الطرفان بعد أربع سنوات ، فأحرقت المذكرات عام ١٨٢٨ فى حضور مور ومرى وهوبهاوس وأوجستا .

***

أظهرت ليدى بايرون نبلا وشهامة عظيمة فيما يخص زوجها ، فقد رفضت أن تصرح بشىء بعد أن هجرته ، واضطر إلى الرحيل من انجلترا . وعندما تطايرت الاشاعات عن علاقته بأخته ، وضج المجتمع بالفضيحة ، ظلت صامتة ، وأبت أن تبوح بحقيقة الدوافع التى

أدت إلى هجره . ولما رأت ما تعانيه أوجستا من احتقار واضطهاد عام ، تقدمت إلى صداقتها ، وأخذتها تحت رعايتها ، وساعدتها بالمال طيلة حياتها .

وكانت نتيجة هذا الكرم الشاذ أن انقلب الرأى العام عليها ، واتهمها الناس بقلة الاحساس ، وموت العاطفة ، و بلادة الذهن ؛ واحتقروها ونبذوها ، لصمتها وعطفها على أوجستا ؛ وظلت طريدة المجتمع ، حتى ماتت عام ١٨٦٠ .

ولم يشفع الموت لأنا بيلا ، فكتب محام اسمه « باجيت » مقالة يعقب فيها على وفاتها و يقول عنها :

«إن أحقر نساء الطريق فى حى «هايمارکت» أفضل شخصية من ليدى بايرون ! » .

ولكن أنا بيلا تصرفت هكذا خوفاً على اسم ابنتها آدا ، وخشية أن تحطم الفضيحة مستقبل الفتاة البريئة .

وعند وفاتها تركت وراءها صندوقا محكم الإغلاق ، يحوى كثيراً من الأوراق ، وأوصت بتسليمه إلى بعض من تأتمنهم من الأصدقاء ، وطلبت فى وصيتها ألا يفتح هذا الصندوق إلا بعد وفاتها بعشرين عاماً أى سنة ١٨٨٠ . وجاء ذلك العام

ومضى ، ولم يفتح الأصدقاء الصندوق حذراً من أن يجدوا فيه ما يثبت الإشاعات القديمة ، فيحملوا أنفسهم تبعة هم فى غنى عنها .

وبقى الصندوق مغلقاً حتى مات آخر هؤلاء الأصدقاء ، فانتقلت ملكيته إلى اللورد « لوفليس » حفيد الشاعر . وفى عام ١٩٠٥ فتح لوفليس الصندوق ، فوجد الوثائق التى تثبت قصة بايرون وأوجستا ، ومن ضمنها خطابات يعترف الاثنان فيها بالخطيئة .

وأحس حفيد الشاعر أن الواجب يدعوه إلى مصارحة الجمهور بالحقيقة فكتب القصة فى كتاب أسماه « أستارتى » ، وهو اسم بطلة ديوان « ما نفريد » ، وطبع الكتاب ووزعه ، فانكشفت المأساة على حقيقتها أمام الناس .

* * *

أوصت ليدى ميلبانكى والدة أنابيلا ألا يذكر اسم بايرون على مسمع من ابنته آدا ، أو تقرأ لها أشعاره حتى تشب وتترعرع ؛ فلم تعرف الفتاة شيئاً عن أبيها إلا فى الخامسة عشرة من عمرها . ولما قرئت لها الأشعار لم تعجب بها كثيراً ، لأنها كانت إلى العلوم أميل منها إلى الآداب .

وكانت آدا جميلة الشكل ، رخيمة الصوت كوالدها ، ولكن كان فى تصرفاتها بعض الشذوذ ، فتنافرت هى وأمها ، وعاشا فى خلاف مستمر .

وعندما بلغت العشرين تزوجت من إيرل « لوفليس» ، ورزقت منه صبياً أصبح فيما بعد لورد لوفليس مؤلف «أستارتى» وماتت عام ١٨٥٢ قبل أمها بثمانى سنوات ، وقد بلغت من العمر سبعاً وثلاثين سنة . ودفنت — إجابة لوصيتها — بجوار والدها فى نيوستيد .

***

لما قرئت وصية بايرون وجد أنه ترك لأخته ثروة تربى على مائة ألف جنيه ، ولكن أوجستا بددت المال فى بحر سنتين ، وعادت إلى فقرها السابق . والتجأت إلى أنابيلا تنشد المساعدة ، فأمدتها بالمال طوال حياتها ، ولولا هذه المساعدة لماتت هى وأولادها جوعاً . وتوفيت أوجستا عام ١٨٥١ .

نتيجة الاستفتاء

بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤ اجتمعت لجنة الاستفتاء فى دار مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر بحضور حضرات الأساتذة : الدكتور طه حسين بك وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف عن لجنة اقرأ ، والأستاذين شفيق نجيب مترى صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ويوسف مشاقه مديرها .

وقد صار إحصاء وفرز الأصوات الواردة فبلغ عددها ٢٧٠٩ بنسبة ١٨٫٠ ./. من النسخ التى توزع شهرياً .

●

نال الكتاب رقم ٨ «مذكرات دجاجة» الدكتور إسحق موسى الحسينى بالقدس باستحسان أكبر عدد من القراء ، وكان ذلك بنسبة ٣١ ./. من مجموع الأصوات الواردة فاستحق جائزة « اقرأ » لسنة ١٩٤٣ وقدرها سبعون جنيهاً مصرياً .

●

فاز حضرة السيد مصطفى البارودى بمعهد الحقوق العربى بدمشق بالاقتراع السرى من بين القراء الذين استحسنوا الكتاب الفائز فاستحق الجائزة المخصصة لذلك وقدرها ثلاثون جنيهاً مصرياً .



ظهر حديثا

ص		
٢٥	الملك الضليل «أمرؤ القيس»	للاستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٥	بـلزاك	للاستاذ أحمد الصاوى محمد
٢٥	شللي (أو قبور فى جنة الحب)	للاستاذ أحمد الصاوى محمد
١٠٠	ألف ليلة وليلة	للسيدة سهير القلماوى
٢٠	فى شمال أفريقيا	للملازم السيد فرج
٢٠	ألوان من الحب	للاستاذ عبد الرحمن صدقى
٢٠	تلاقى الأكفاء	الاستاذ على أدهم
٢٠	بنت الشيطان	للاستاذ محمود تيمور بك

ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بمناسبة العيد الألفى لأبى العلاء المعرى

٣٦٣ هـ — ١٣٦٣ هـ

تقــدم

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

صـ

١) مع أبي العلاء في سجنه (الطبعة الثالثة) ٢٥

تحليل دقيق لنفسية أبي العلاء مع وصف لفنونه الشعرية والنثرية ، ونزعاته النفسية وبواعثها ، في أسلوب سهل ممتع طريف ، للدكتور طه حسين بك

٢) رسالة الغفران (ترجمة انجليزية) ٣٠

هدية الأدب العربى إلى الأدب الانجليزى ، اشترك فى إخراجها الأستاذان : كامل كيلانى و ج . براكنبرى